الدكتور محمد البهي

المجتمع الحضاري وتحدياته

من توجيه القرآن الكريم

الناشر
مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية بعابدين
ت ٩٣٧٤٧٠

obeikandl.com

الطبعـة الأولى
جمادى الأول ١٣٩٧ هـ
مايو ١٩٧٧ م

جميع الحقوق محفوظة

دار غـريب للطبـاعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩

obeikandl.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـــد :

يقول الله تعالى :

١ ــ « وأنِ احكمْ بينهمْ بما أنزلَ اللهُ
ولا تتبعْ أهواءهمْ
واحذرهمْ أن يفتنوكَ عن بعضِ ما أنزلَ اللهُ إليكَ
فإن تولَّوْا فاعلمْ أنما يريدُ الله أن يصيبهمْ ببعضِ ذنوبهمْ
وإن كثيراً منَ الناسِ لفاسقونَ
٢ ــ أفحكمَ الجاهليةِ يبغونَ ؟
ومنْ أحسنُ من اللهِ حكماً لقوم يوقنونَ ؟(١)

---

(١) سورة المائدة : ٤٩ ، ٥٠
والفاسقون وصفهم القرآن فى قوله :

يضلُّ بهِ كثيراً ويهدي بهِ كثيراً ، وما يضلُّ بهِ إلا الفاسقين . الذينَ ينقضونَ عهدَ اللهِ من بعدِ ميثاقهِ ويقطعونَ ما أمرَ اللهُ بهِ أنْ يُوصَلَ ، ويفسدُونَ في الأرضِ ، أولئكَ همُ الخاسِرونَ » (فى سورة البقرة ٢٧) .

٠٠ هم أولئكم العصاة المتمردون ــ وظهر عصيانهم وتمردهم فى :

(أ) انهم لم يوفوا بعهد الله بعد أن قطعوا العهد على أنفسهم ، ومن لم يوف بعهد الله لا يوف بعهد الناس ٠

(ب) وفى أنهم قطعوا ما أمر الله به أن يوصل بين الناس من الصلات والعلاقات الطيبة القائمة على التواد والتعاون والتراحم والتعاطف ٠ وهذا وذاك يدل على أن أنانيتهم قد ملكت عليهم أنفسهم فاصبحوا لا يرون فى الوجود والحياة الا تلك النزوات الخاصة وحدها ٠ وهذا شر مصدر للسلوك الخاص والعام ٠

(ج) وفى أنهم يفسدون فى الأرض ٠

وتلك نتيجة طبيعية لمن ملكت عليه أنانيته ذاته ، فاصبح لا يرى الله والناس ومن ثم لا يستهدف الا مصلحة الذات ، ولو كانت على حساب الآخرين ٠

ومعنى أن الله يضل بالقرآن الفاسقين : انهم فى عنادهم للحق وتمردهم عليه ، ستكون دعوة القرآن اليهم نحو الحق من جديد سببا فى رفضهم اياه ، بمقتضى العناد والتمرد لديهم ٠ فالقرآن سيكشف ضلالهم عندئذ ٠ فمعنى يضل يكشف الضلال ، بحيث يبدو غير مقنع ٠

... قسمت الآية المجتمع البشرى إلى مجتمعين :

أحدهما يحكم بما أنزل الله ولايتبع هواه فى سلوك الأفراد وتصرفاتهم . وهو المجتمع الأفضل فى نظر أولئك الذين تأكد صدق إيمانهم بالله . لأن هؤلاء لم يعد حكمهم يخضع للتأثر بالشهوات وإغراء متع الحياة ، كما لم يعد يخشى ضغط الإرهاب والتهديد ممن يمارسون الحكم قهرا واستبدادا . وهو كذلك مجتمع أفضل بالنسبة لهم . لأنهم لايريدون سوى الاستقامة والعدل فى التصرفات . وكتاب الله يكفل لهم ذلك قطعا .

ولا يقال : إن المؤمنين بالله على سبيل التأكيد ، قبلوا كتاب الله الذى آمنوا به على أنه : أفضل مصدر بفصل بينهم فى حياتهم ، وما فيها من مشاكل ، ومابين الأفراد من خلافات .. هم فى قبولهم يتحيزون فى ذلك . لأن من آمن بشىء فضله وآثره على ماعداه .

.. لايقال هذا ، لأن المتحيز هو من له مصلحة خاصة فيما يؤثره ويفضله . والمؤمنون بكتاب الله ليست لهم مصالح شخصية ، من : متع الحياة وجاهها يحصلون عليها إن هم آثروا العمل والرجوع فيما يختلفون فيه إلى كتاب الله . بل مصلحتهم فى تفضيله هى المصلحة العامة . والمصلحة العامة لأى مجتمع هى سيادة العدل ، ومايرتفع فوق العدل درجة ، وهو الإحسان فى المعاملة والتهذيب فى السلوك : «ومن أحسن من الله — أى من كتاب الله — حكما لقوم يوقنون » .

« فلذلِكَ فادْعُ ، واستَقِمْ كَما أمِرْتَ ، ولاَ تتبِع أهوَاءهُمْ ، وقلْ : آمنتُ بمَا أنزَلَ اللهُ من كتابٍ ، وأمرْتُ لأعدِلَ بينكُمْ »(١) .

والمجتمع الآخر هو مجتمع الجاهلية ، وهو المجتمع الذى يتبع الأهواء فى

---

(١) الشورى : ١٥

الحكم وهو المجتمع الأنانى . والأنانية إذا سادت فى مجتمع كان أساس الحكم فيه ، . إما : الاعتماد على .

(ا) القبيلة وعصبيتها ،

(ب) أو الإقطاع واستغلاله ،

(جـ) أو التمييز العنصرى وغطرسته . . . لأن الأنانية إذا تجسدت وراء الفرد ، تجسدت فى كتلة متماسكة بسبب : عصبية الدم ، أو عصبية المال ، أو عصبية الشعب أو الجنس البشرى وعصبية المال على عهد الإسلام كانت عصبية الإقطاع ، وهو استغلال الأراضى الزراعية الشاسعة فى دولتى الفرس والروم ، على حساب الأجراء والعبيد الذين كانوا يكرهون على العمل فيها . وفى ذلك يقول القرآن الكريم : « ولا تتبع أهواءهم . . أفحكم الجاهلية يبغون » ؟ .. فربط بين اتباع الأهواء ، والحكم الذى يسود فى مجتمع الجاهلية ، أى فى مجتمع الأنانية واللاإنسانية ، ومصيره إلى الطغيان :

« فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هى المأوى . وأما من خاف مقام ربه ، ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى »[1].

وإذا كان المجتمع الذى يتبع الهوى فى الحكم هو مجتمع الجاهلية ، فالمجتمع المقابل له الذى يحكم بما أنزل الله هو المجتمع الحضارى . والفرق بين الاثنين أن : أولهما يشيع الفرقة ويستغلها ، وأن ثانيهما يستهدف الوحدة ويحققها على أساس إنسانى ، هو أساس المساواة فى الاعتبار والقيمة البشرية بين جميع الناس . ولذا كان طابع هذا المجتمع الثانى طابعا إنسانيا . ومن ثم يكون إنتاجه مما يأتى به من عمل هو للإنسانية خالصا ، وهو من أجل ذلك هو : مجتمع حضارى إنسانى .

ولا يقال إن المجتمع الذى يحكم بما أنزل الله هو مجتمع إلهى أو دينى ، لأنه

---

(١) النازعات : ٤١

ليس على الأرض مجتمع إلهى أو دينى ، على معنى : إن الحكم فيه منزه عن الخطأ البشرى ، وأن القيادة فيه قداسة العصمة ، إلا ذلك المجتمع الذى آمنت به الكنيسة الكاثوليكية ، وهو مجتمع خاص بها ومانعتقده : كحكومة ودولة باسم الله على الأرض .

إن المجتمع الذى يحكم بما أنزل الله يخضع للخطأ والصواب فى التطبيق . وهو بذلك مجتمع إنسانى . وكل ميزته : أنه يؤمن بالله وبرسالته فى كتابه الكريم . وكل ماتهدف إليه الرسالة — رسالة الله فى كتابه المنزل — ألا يرتفع الإنسان إلى مستوى الله فى القداسة والعبادة ، ولا ينزل إلى مستوى الحيوان فى السلوك ، بل يكون إنسانا ، ويظل إنسانا : إن حكم ، أو تصرف أو عمل ، أو فكر . ومن هنا فهو هو مجتمع إنسانى كذلك ، لأنه يحقق رسالة الإنسانية والقيم التى تمثل إنسانية الإنسان فى مجتمعه :

« اللهُ وليُّ الذينَ آمنُوا يخرجُهُمْ منَ الظُّلُماتِ إلىَ النُّورِ ، والَّذينَ كَفَرُوا أولياؤُهُمُ الطاغوتُ : يخرِجُونَهُمْ من النُّورِ إلىَ الظُّلُماتِ ، أولئِكَ أصْحابُ النارِ هُمْ فيها خالِدُونَ »(١) .

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ .

والظلمات التى يخرج منها الله سبحانه المؤمنين به هى ظلمات الشهوات . وما تؤدى اليه من نتائج فى حياة الناس - وهى نتائج : التشاحن والبغضاء .

أما الذين يتبعون الشيطان أو يتبعون أهواءهم فكان يمكن لهم عن طريق هداية الله ، لو وفقوا اليها ، أن يسيروا فى نورها ، ولكنهم باتباعهم الهوى كمن خرج من النور الى الظلمة .

الفصل الأول

مظهر الوحدة

obeikandl.com

obeikandl.com

٢ ـ وحـــدة المعبود :

الوحدة فى القرآن الكريم هدف الإنسان : فى عبادته ، وفى نفسه ، وفى مجتمعه فعن طريق تحقيق الوحدة فى هذه المجالات الثلاثة ، يخلص نشاط الفرد الإنسانى إلى البناء والعمران ، وإلى الصفاء ، وتمكين أواصر المودة والتعاون بين الأفراد ، فى أمتهم ومجتمعهم ، بدلا من التفتت ، والتمزق ، والتخاصم ، والتناحر.

والوحدة فى العبادة هى الإيمان بوحدة الألوهية ، وعدم الشرك فيها ، أى بعدم الاعتقاد بأكثر من واحد فيها : « قل : هوَ اللهُ أحَدٌ . اللهُ الصَّمَدُ . لمْ يلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، ولمْ يكُنْ لهُ كُفُواً أحَدٌ » :

... فهذه السورة القصيرة تعتبر شعار الوحدة فى الألوهية فى القرآن الكريم كله . لأنها إذ تعبر عن الوحدة تشرحها فى إجمال ، مع إيضاح لا لبس فيه ، بحيث تنفى عن الله ماشاع فى تصور سابق على رسالة الإسلام على يد محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم : من مشاركة بينه — جل شأنه — وبين الإنسان فى صفات هذا الأخير :

- فهو ذات واحدة ، وليس أكثر من واحد فى العدد ،
- وهو ليس بحاجة إلى غيره مما خلق ومما هو موجود ، وغيره فى حاجة إليه : فهو الغنى ،
- وهو الصمد ، وهو لايلد ولا يسل ، كما يصنع الإنسان . وهو كذلك لم يكن مولودا من أبوين ،
- وهو ليس له نظير فى خصائصه . . هو متفرد وحده فى تلك الخصائص ، ولا يرتفع إلى مستواه فيها موجود آخر سواه .

وقد حرصت هذه السوره على أن توضح « الوحدة » فى الألوهية على نحو قاطع ، لاتبدد فحسب : ما علق وما ألصق بذات الله فى تصور : ماقبل الدعوة

الإسلامية لرسول الله ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، وإنما لتضع حدودا ميسرة فى القبول ، لإطار هذه الوحدة ، بحيث تقطع كل علاقات المشاركة بين ذات الله وذات الإنسان فى تصور الإنسان وإدراكه . إذ المقصود الأول لوحدة الألوهية هو : الحيلولة دون أن يقع الإنسان فى تعظيم إنسان مثله ، وفى عبادته. المقصود الأول ، هو : أن يتحرر الإنسان إلى غير عودة ، من : عبادة الفرد من البشر ، ومن الخرافة فى تقديس الموجودات الأخرى ، وفى تصور : أن بعضها له صلاحية النفع والإضرار لغيره : والحيلولة : دون أن يعبد الإنسان إنسانا مثله ، أو يعبد موجودات أخرى دونه ، هى لإفساح الطريق أمام الإنسان وأمام نشاطه الإنسانى ، لا تقيده فيه رهبة أو خوف من أى موجود ، عدا الله جل شأنه .

إن بلاء الإنسان فى ألا يعرف نفسه ويعرف غيره على الحقيقة ، وأن الانحطاط الذى يصيب الإنسان هو : أن يفترض — فضلا عن أن يعتقد — فى إنسان آخر ، بسبب جاه ، أو ثراء ، أو عصبية ، أنه يتميز بالاحترام إلى درجة العبادة ، ويصبح بذلك موضع رجاء وسؤال ، كما يصبح فوق النقد وعوارض الضعف البشرى . وبالتالى يصبح : موضع تزلف الآخرين ، وتذللهم وتملقهم . وأن النفاق فى السلوك لإنسان ما ، لا يعود إلى رغبة فى تحصيل شهوات وتحقيق أمان ، بقدر ما يعود إلى الضعف فى التصور وإخفاء درجة من الاحترام على إنسان آخر ، يخرج بها عن مستوى الإنسانية إلى ما فوقها . وبذلك يصبح النفاق هو القربان الذى يقدم إليه .

وإن إشراك الإنسان فى أن يكون معبودا مع الله لا يحط من كرامة الإنسان العابد والإنسان المعبود على السواء فقط ، بل مع ذلك يحول الإنسان العابد إلى موجود آلى ، أبعد عن ذاته : القدرة الخلاقة فى قيادة تلك الذات ، وسط مشاكل الحياة ، تلك القدرة التى تهيىء للفرد الإنسانى مع الآخرين : أن يبنى مجتمعا حرا عزيز الجانب ، مستقيم السلوك : « كنتم خير

أمةٍ أخرِجَتْ للنَّاسِ تأمرُونَ بالمعرُوفِ ، وتَنهَوْنَ عنِ المنكرِ وتؤمنُونَ باللهِ »[١] . كما يحول الإنسان المعبود إلى موجود يعميه الوهم عن إدراك الحقائق ويدفعه الغرور إلى الترفع، فالطغيان . ثم يقذف به طغيانه مرة أخرى إلى الحضيض، بحيث يدق عنقه ، وتنفر من سمعته — بعد هلاكه — آذان الناس. وفى مقدمتهم: من كانوا يتملقونه ويتزلفون إليه .

وهناك بعد هذه السورة القصيرة التى تعد شعار الوحدة فى الألوهية .. آيات عديدة أخرى تعنى ـ بجانب تأكيد الوحدة ـ بنفى تصورات للألوهية راج بعضها فى مجتمع ، وراج بعضها الآخر فى مجتمع أو مجتمعات أخرى ، فيقول القرآن الكريم « ما اتخَذَ اللهُ من ولَدٍ ، وما كَانَ معهُ من إله ، إذًا لذَهَبَ كلُّ إله بِمَا خلَقَ ، ولَعَلاَ بعضُهُمْ على بعضٍ ، سبْحَانَ الله عمَّا يصفُونَ ، عالِمِ الغَيْبِ والشَّهَادَةِ ، فتعالَى عمَّا يشرِكُونَ »[٢] . .

وينفى ماراج فى بعض المجتمعات اليهودية ، من : إن عزيرا ابن الله ، وماشاع أيضا فى بعض المجتمعات المسيحية ، من : أن عيسى بن الله ... ويؤكد الوحدة فى ذات الله نفسها فينفى : أن يكون معه إله على الإطلاق ، سواء أكان الابن المدعى ، أو غيره ، مما يدخل فى إطار الوثنية والشرك على العموم ... ثم يبرهن على : نفى التعدد فى الألوهية بأنه : لو كان هناك تعدد — اثنان فأكثر — لذهب كل إله بما خلق ، وتحيز له . ومن شأن ذلك : الاحتكاك والخصومة ، ولعلا بعضهم على بعض ، كى يؤكد كل سيادته واستقلاله بما خلق . وإذا افترض مثل هذا النزاع والتعالى — وهو مفترض حتما بحكم التعدد والثنائية — فقطعا سيتبعه الاضطراب فى عالمهما ، إلى أن يصل الأمر . إلى تدمير أحدهما للآخر .

---

(١) آل عمران : ١١٠
(٢) المؤمنون : ٩٢

ومايدمر منهما لايجوز له : أن يكون إلها . لأن شأن الإله ألا يفنى ، ولايدمر. وما بقى منهما فهو الإله ، وهو واحد إذن .

على أن المشاركة فى الألوهية ذاتها توحى بتصور النقص فى ذاتى الشريكين، أو فى ذوات الشركاء . وهو النقص فى القدرة والاستطاعة ، فى : الخلق والإيجاد فى محيط الوجود كله . وتصور أى نقص فى صفات الإله تضعف من احترامه ، وبالتالى من عبادته والطاعة له . وشأن ماله هذا الضعف لايكون إلها. فافتراض: المشاركة فى الألوهية يوصل إلى إنكار الألوهية عن الشريكين ، أو الشركاء فيها أصلا . فسبحان الله عما يصفون . فهو أرفع ، وفوق مايتصور أو يتخيل هؤلاء من : أن له ولدا ، أوشريكا . فهوعالم الوجود كله- ناضره وشاهده ، وغائبه وخفيه وما يعلم الوجود كله يتعين أن يكون واحدا ، وإلاماعلم غير محيط ما أوجده فقط .

ويقول القرآن الكريم أيضا بشأن: أن الدعوة للوحدة فى الألوهية — بمعنى عدم التعدد فى ذات الإله — ، ليست دعوة جديدة ، أرسل بها الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، بل هى دعوة الرسالة الإلهية ، منذ أن : أرسل رسول بها إلى قومه ، فى مجتمع ما : « وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون »[1] .

وكل رسول أرسل بها كان ينبغى أن يبدد أوهاما وتصورات فى جانب الألوهية ، خلقتها أوهام المغرضين الذين يحترفون بالقيم الدينية ، أو أولئكم الذين لاتتفق القيم الدينية مع ميولهم واتجاهاتهم فى الحياة ، فى فترة مابين الرسالتين : « ومن الناس من يعبد الله على حرف . فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين . يدعو من دون الله مالا يضره ومالا ينفعه ذلك هو الضلال

---

(١) الأنبياء : ٢٥

البَعِيدُ . يدعُوا لمَنْ ضرُّهُ أقْرَبُ مَن نفْعِهِ ، لبِئْسَ المولَى ولبِئْسَ العَشِيرُ»(١) .

.. فهذه الآيات تصور : أن إيمان بعض الناس بالله ليس إيمانا صادقا لذاته . وإنما هو إيمان لمصلحة وغاية شخصية . فإن تحققت هذه الغاية بقى — صورة وشكلا — على إيمانه . وإن جاء الأمر على العكس منها ، كفر بالله ورجع عن عبادته . وربما يتجه فى طاعته وعبادته الجديدة إلى مالا يضر ولا ينفع ، وربما إلى ما يكون ضرره المرتقب أكثر من نفعه المنتظر أيضا . فاذا هو ارتد عن إيمانه وانقلب على وجهه بسبب ماوقع له من أذى وأزمات .. بسبب عسر فى مال ، أو بسبب مرض طارىء على صحته ، أو بسبب تعثر فى جمعه المال ، أو فى تدرجه فى السلطة والجاه ، أو نحو ذلك .. فإنه عندئذ يكون قد خسر الدنيا . لأنه لم يحقق فيها الآن ما أماه ، وخسر الآخرة كذلك لأنه كفر بعد إيمان ، وجحد بنعمة الله عليه من : العقل ومصدر الهداية ، وهو الرسالة الإلهية ، دون ماعوض آخر له . وإذا هو اتجه بعد كفره وارتداده إلى عبادة ما لا يضر ولا ينفع .. فيكون قد ضل ضلالا بعيدا . لأنه سار فى طريق احتقر فيه ذاته ، وأهدر كرامته . إذ قد عبد ما ليس أعلى منه فى الوجود . ومع ذلك لم يحقق — ولن يحقق من اتجاهه الجديد — مصلحة شخصية له . وإذن يعبد آنئذ ما لا يضر وما لا ينفع . وإن هو اتجه فى العبادة الجديدة إلى ما ضرره أقرب فى الترقب والانتظار من نفعه ، يكون قد عبد أسوأ معبود ، واختار أسوأ عشير يستند إليه فى عشرته ؛ إذ ضرر هذا العشير أقرب من نفعه .

والآيات — بعد هذا التحليل فى ميزان الكسب والخسارة لذلك الذى يعبد الله على حرف وفى شكل صورى ، لقصد المنفعة الذاتية وحدها — تعطى عاملا من العوامل البشرية التى تدفع إلى الشرك والوثنية ، والخروج فى مجال الألوهية

---

(١) الحج : ١٣

عن الوحدة الأصلية فيها . تلك الوحدة التى تعتبر أمرا طبيعيا فوق الجدل والخلافات. وذلك العامل هو : أن الإيمان بالله لم يحقق الآن الهدف الشخصى للمؤمن به الذى دخل فى الإيمان طمعا فى تحقيقه ، ولم يدخله لذات الإيمان والآثار المترتبة عليه فى : استقامة سلوكه واطمئنان نفسه لحب الخير ، والمصلحة العامة .

وشأن هذا العامل شأن العامل الآخر ، وهو الاتجار بالقيم الدينية من المحترفين بالدين ، فى : ذهابهم إلى تصورات وأوهام فى دائرة الألوهية تقوض مبدأ الوحدة ، وتوحى بالشرك والوثنية ، طمعا فى دنيا يصيبونها . فالشرك فى الألوهية مصطنع من الإنسان ، وأمر طارىء على الإنسانية فى ذاتها ، بسبب مايطوى فى طبيعة الإنسان ويدفع إليه الغرض الشخصى أو تدفع إليه الأنانية ، وهوى النفس . ولذلك هو جرم متعمد فى حق الإنسانية . وضرره على الشخص أكثر من ضرره على الإنسانية . وهو الانحراف فى السلوك وفى البناء ، وفى العلاقات ، وفى توجيه النشاط للبشرية .

ومن هنا كان تصوير القرآن للمشرك فى مباشرة جريمة الشرك أو فى نهاية أمره ومصيره ، تصويرا يرهب من الإقدام على الشرك ، ويدعو إلى التفكير طويلا ، وكثيرا ، فى : مدى بشاعته قبل مباشرته . يقول الله تعالى : « . . . ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ، ولاتجعل مع الله إلها آخر ، فتلقى فى جهنم ملوما مدحورا (مطرودا)[١] . ويقول: « ومن يدع مع الله إلها آخر ، لابرهان له به ، فإنما حسابه عند ربه ، إنه لايفلح الكافرون »[٢] . ويقول : « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق» [٣] . فالآيتان الأوليان تنذر المشرك بعذاب جهنم فى الآخرة، وتصفانه بأنه : سيكون ملقى مطرودا فيها ، وملاما على جريمته ، وأنه لايفلح أبدا فى

---

(١) الاسراء : ٣٩
(٢) المؤمنون : ١١٧
(٣) الحج : ٣١

الإفلات من هذا العقاب ، وهو عقاب بدنى ونفسى معا : بدنى لأنه فى نار جهنم، ونفسى لأنه قضى عليه مع ذلك البقاء فيها ، والطرد من الجنة مع الملامة والتنديد. فهو معذب ، وذليل فى الوقت نفسه .

والآية الثالثة تصف وضع المشرك مع شركه فى دنياه ، بذلك الذى يسقط من مرتفع عال ، فلا يوجد له أثر على الأرض . والآية بذلك تبرز عدم استقلال المشرك فى تحديد خط سيره فى الحياة . فهو متقلب فى شركه بين عبادة هذا ، أو عبادة ذاك ، من : الكائنات الإنسانية ، وغير الإنسانية ، حسب تقلبه فى تبعيته لهواه . إذ الانصراف عن الإيمان بوحدة الله إلى الشرك مبعثه الهوى والرغبة فى تحقيق الشهوات ، وهو متغير تغير الرياح فى اتجاهاتها . والمصير الدنيوى الذى ينتظره — حسبما تشبه هذه الآية — مصير الهالك الذى لا يعى من أمر نفسه شيئا ، ومن هلاكه فى صورة غير عادية . فهو إذ يحس فى وقت : أنه على قمة مأمونه بسبب ماله ، أو أولاده وعصبيته ، أو بسبب جاهه ، إذا به يهوى إلى غير قرار بفعل الأموال والأولاد نفسها ، وسوء استغلالها ونية هذا السوء فى استخدامها، طبقا لإملاء الهوى والشهوة . والسبب الرئيسى فى هذا المصير ، وذلك الجزاء الأخروى ، هو : الشرك لا غيره . فهو الأمر الذى يفسد على الإنسان حياته بإخضاع ذاته إلى ما لا يحترم ، فضلا عن أن يعبده ، ويفسد أيضا عليه مصيره الذى لا يستطيع أن يكون ذا شأن فيه .

إن قضية الإيمان بوحدة الله والشرك بغيره هى فى الواقع قضية تقييم متع الحياة المادية، وتقييم شهوات النفس الإنسانية وأهوائها : الإيمان بوحدة الله يقيم الطرفين تقييما يتجنب فيه الغلو ويلتزم الاعتدال . فهو لا يرفض متع الدنيا، ولا يحول دون أن تلبى النفس شهواتها منها . وكل ما يطلبه من موقف إزاءها هو : أن ألا يبالغ الإنسان فى تقديرها ، بحيث تحول هذه المبالغة دون تذكر ما لله فى رسالته ، ويقع تحت تأثر الافتتان بهما :

« يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ، ولا أولادكم عن ذكر الله ، ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون »(١) . والأموال ، والأولاد ، هي قيمة ما في الحياة الدنيا من متاع وزينة : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا ، والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابا وخير أملا »(٢) . « اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ، ولهو ، وزينة ، وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد : كمثل غيث أعجب الكفار نباته ؛ ثم يهيج فتراه مصفرا ، ثم يكون حطاما . . . »(٣) .

في الآية الأولى هنا : نهى القرآن عن أن تلهى الأموال ، والأولاد ، بالاستغراق في الاستمتاع بها . وذلك يستتبع الانطلاق في تلبية الهوى والشهوة . عن ذكر الله ، وهو القرآن نفسه ، أو يقصد بذكر الله ما يطلبه في تصرفات الإنسان وسلوكه من استقامة . دون أن ينهى عن الانتفاع بها نفسها ، والاعتدال في هذا الانتفاع . والآيتان الأخريان توضحان فحسب : مكانة : الأموال ، والأولاد في متع الحياة المادية ، بحيث تصلح لأن تكون شعارا لهذه المتع .

والشرك بغير الله يقوم على المبالغة في تقييم هذه المتع من جانب ، كما يتيح للشهوة النفس أن تأخذ طريقها ، دون حد أو حاجز من جانب آخر . وعن طريق المبالغة في تقييم متع الدنيا ، ينكر المشرك الحياة الآخرة . وإلا لما بالغ في تقييم هذه المتع ، بل واعتدل وأزهد فيها . وعن الانطلاق ودفع كل الحواجز والحدود في طريق تحصيل شهوات النفس ، ينفر من الدعوة إلى الهداية برسالة الله . وهي رسالة الحد من الأنانية ، وتقييد النفس في اتباع شهواتها .

---

(١) المنافقون : ٩
(٢) الكهف : ٤٦
(٣) الحديد : ٢٠

« ثم أنشأنا من بعدهم (قوم نوح) قرنا (مجتمعا) آخرين ، فأرسلنا فيهم رسولاً منهم : أن اعبدوا الله مالكم من إله غيره ، أفلا تتقون ؟ وقال الملأ من قومه الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة الدنيا : ما هذا إلا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون . ولئن أطعتم بشراً مثلكم ، إنكم إذا لخاسرون أيعدكم أنكم إذا متم ، وكنتم تراباً وعظاماً : أنكم مخرجون : هيهات هيهات لما توعدون . إن هى إلا حياتنا الدنيا ؛ نموت ونحيا وما نحن بمبعوثين . إن هو إلا رجل افترى على الله كذبا ، وما نحن له بمؤمنين »[١] .

فعرضت هذه الآيات لإنكار المشركين الأمرين معاً : الدار الآخرة ، والرسالة الإلهية ، بسبب ماهم فيه من ترفه ، يريدون أن يستمتعوا به فى غير حدود ، وعلى حسب ما تتطلب شهواتهم . وتلك نتيجة الشرك ومبعثه

وقد يزيد المشركين فى شركهم مايعطونه ، من : مال ، وأولاد فى الدنيا ويستخلصون من نعمة المال والأولاد : أنهم على حق فيما أشركوا فيه ، وأن طريقهم فى الحياة هو الطريق الصحيح :

« أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين . نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون »[٢] . فبعد أن ذكرت الآية ماقد يتردد فى نفوس المشركين من هذا الوهم أو الاعتقاد ، أتبعته بنفي : أن ما يقع من نعم المال ، والأولاد لهم ، ليس دليل رضى من الله عليهم ، وبالتالى ليس آية على اتباعهم الحق

---

(١) المؤمنون : ٣١ ـ ٣٨ .
(٢) المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ .

فيما يسلكون ويعتقدون . بل بالأحرى ، هو للإغراء والفتنة ، لإظهار تماديهم فيما يصنعون . ولكنهم فقط لا يدركون الهدف الحقيقي مما أعطوه من نعم ومتع فى حياتهم الدنيوية : «إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَالَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ . أُولَئِكَ الذِينَ لَهُمْ سُوءُ العَذَابِ ، وَهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الأَخْسَرُونَ»(١).

***

وإذ يقص القرآن الكريم أوضاع المجتمعات السابقة على دعوة الرسول محمد ابن عبد الله صلى الله عليه وسلم وعلى عهده . . . فإنما يقص أوضاعا تدور مع الزمن ومع الإنسان . فالشرك فيما مضى يمكن أن يحصل اليوم فى صورة أو فى أخرى . وتصور المشرك لمتع الحياة وافتتانه بها ، وإنكاره رسالة التوحيد فى الألوهية ، والدار الآخرة ، من ذلك ما يمكن أن يتكرر أيضا فى صورة أو فى أخرى . فليس إنكار وحدة الألوهية إلا ليتيح المنكر لنفسه فرصة يتجه فيها بالاحترام ، والعبادة إلى ما يقدره ويرجوه هو ، بجانب الله فى كونه .

وليس إنكار المشرك كذلك لوحدة الألوهية إلا ليعطى لنفسه العذر بسبب التبرير فى ارتكاب ما يرتكب ، مما تسميه رسالة تلك الوحده : فواحش ، أو منكرات ، فالشرك تبرير لتصرف مشين ، وسلوك غير إنسانى . وإن لم يأخذ الشرك صورة العبادة وتقديم القرابين فى محيط الوثنية الأولى البدائية . . الشرك تبرير للانتهازية ، وللوصولية ، والأنانية ، واللاإنسانية . وبهذا يعتبر الشرك الذى قد تفرضه بعض نظم الحكم السياسية فى عصر العلم التكنولوجى ، منذ النصف الثانى من القرن العشرين ، أشد خطرا وبلاء على الإنسان والإنسانية من ذلك الذى كان يمارس بحكم التقاليد والعادات ، فى المجتمعات السابقة أو المعاصرة للإسلام .

---

(١) النمل ٤ ، ٥ .

إن الشرك فى المجتمعات الوثنية السابقة كان يدفع إليه ميل المشرك إلى النفع أو الوقاية من الضرر . أى كان يدفع إليه عامل ذاتى أنانى . ولكن المشرك فى فى مجتمع العلم التكنولوجى فى القرن العشرين يحمل عليه القهر والإكراه من نظام حكم المجتمع ، الذى يفرض فرضا بالعضلات وبالإرهاب . فهو شرك ليست فيه مصلحة شخصية للمشرك الذى يحمل على عبادة الفرد ، وتقديم قرابين الطاعة التى تجد ، سواء إلى شخص الفرد المعبود . . . أو إلى الحزب المقدس . إن الشرك الجديد المعاصر ينطوى على نوعين من المذلة والمهانة لمن يقبله : مهانة الإنسان بعبادته الإنسان .. ومهانة الإنسان بإكراهه على قبول عبادة الإنسان . ومهانة ثالثة لا تقل عن سابقتيها ، وهى مهانة إقناع المشرك فى الوثنية الجديدة بأن شركه هذا رمز الحرية السياسية والاجتماعية معا . رمز التخلص من رق استغلال الرأسمالية : فى أشخاص رجال الصناعة والمال ، وأصحاب الملكيات الزراعية الكبيرة .

ولم يأل القرآن جهدا فى دعوته إلى التنديد بالشرك بسبب خطورته على الإنسانية سواء فيما أعلنه من محرمات على المؤمنين ، أو من وصايا لهم ، أو فيما وجهه من نداء إلى أهل الكتاب رغبة فى تسوية الخلافات فى المجتمع البشرى عامة . ففيما يعلنه من محرمات ، يقول الله جل شأنه : « قُلْ : (والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم)

« إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَالإِثْمَ وَالْبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مَالَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مَالاَ تَعْلَمُونَ »(١)

وفيما يعلنه من وصايا يقول : « وَوَصَّيْنَا الإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْنًا ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ لِتُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، فَلاَ تُطِعْهُمَا »(٢) .

---

(١) الأعراف : ٣٣
(٢) العنكبوت : ٨

وفيما يعلنه من نداءات إلى أهل الكتاب ، قوله : « قل يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ! تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ : أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ ، وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ ، فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ »[1] . .

فى الآية الأولى جعل الشرك فى نتائجه بالنسبة إلى المشرك ، وبالنسبة إلى مجتمع المشركين والمجتمع الإنسانى عامة فى مستوى: الفواحش الظاهرة والمستترة، وفى مستوى الاعتداء والظلم ، والافتراء والكذب على الله فيما يسند إليه من أقوال غير صحيحة . فارتكاب الجرائم الخلقية ، كقتل النفس من غير حق ، وانتهاك الحرمات الشخصية : كحرمة الشخص البدنية ، والنفسية ، بتعذيبه وإرهابه وتتبعه وحرمة ملكه ، ومسكنه ، وحرمة عرضه ، وحرمة حقه فى الرأى والاعتقاد .. وظلم الآخرين بسبب وضع القوة الذى يوجد فيه الظالم ، وهى قوة السلطة ، أو القضاء ، أو المال والثروة ، أو قوة العصبية ، من الحيلولة دون وصول حق الآخرين إليهم ، والاختلاق والكذب فى مبادىء التوجيه العامة ، إذا ما لله من أقوال هى . مبادىء الرسالة الإلهية التى يرجع إليها المؤمنون ، فى : شئون حياتهم ، وتوجيه سبيلهم التى تلقى على الناس والعامة لاتباعها ، بعد التصديق بها والشرك فى الألوهية وعبادة غير الله : من إنسان ، أو حيوان أو حجر . . . أو ما شاكل ذلك ... كل هذه أمور من شأنها : أن تقوض الإنسانية فى سلوك الفرد ، وفى علاقته بفرد آخر فى مجتمعه .

أى شىء يبقى للإنسانية فى المجتمع الإنسانى إذا سادت القبائح فى السلوك والتصرفات ، وساد الظلم فى العلاقات ، وساد الاختلاق فى التوجيه ، وساد احتقار الإنسان وإذلاله ومهانته فى عبادته لإنسان آخر ، أو لما هو دون الإنسان من المخلوقات ؟ .

---

(١) آل عمران : ٦٤ .

وإذا كانت هذه أمور فى ظاهرها ترى : على أنها متعددة ؛ فحقيقة واقعها : أنها نتيجة حتمية للشرك وحده . فالشرك الذى يعبد الإنسان ، أو ماهو دونه ، ويتزلف إليه بقرابين تقليدية أو غير تقليدية ، من : نفاق ، ووصولية ، وانتهازية. هذا الشرك لايحفل بعلاقته مع من يعتقد : أنه مساو له ، أو مع من هو أضعف وأدنى من الناس . وليس من البعيد إذن أن يمارس معه الفواحش ، والظلم ، والاختلاق فى القول .

إن المشرك ـ وقد انقاد إلى نزواته وشهواته فأشرك بالله ـ ليس لديه من عاصم يحول دون أن يباشر ، تلبية واستجابة لهذه النزوات والشهوات : الفحش فى العمل والقول، والظلم فى العمل، والاختلاق والزور فى التوجيه . أليس مايرفعه نظام الحكم الماركسى فى وقتنا المعاصر من شعارات : السلام والتعايش السلمى ، والحرية الاجتماعية ، والكفاح من أجل التحرر ، وما أشبهها من الشعارات التقليدية لهذا النظام .. أليس مايرفعه هذا النظام من مثل تلك الشعارات ، هو : اختلاق فى التوجيه يستهدف به الخداع والتستر على مايجرى فى واقع مجتمعاته : من إرهاب وتعذيب واعتداء ، وظلم ، فى حق الإنسان فى الحياة ؟ . وأليست القبائح والفواحش والبغى والظلم بغير حق التى يرتكبها هذا النظام فى حق إنسانية الفرد ، والمجتمع هى : نتيجة الشرك بالله ؟ . وأليست عبادة الحزب ، و « الفرد » و « تقديس » الإنسان ـــ فى الحزب وفى رياسته — ورفعـــه إلى مستوى الإله هى من نتائجه كذلك ؟ .

وفى الآية الثانية ، فيما أعلنه القرآن من وصايا للمؤمنين ، فى الوقت الذى ينصح فيه الإنسان بالمعاملة الحسنة المهذبة لوالديه ، فى قول الله تعالى : «وَقَضَى رَبُّكَ ، أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ، وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاَهُمَا فَلاَ تَقُلْ لَهُمَا أُفٍّ وَلاَ تَنْهَرْهُمَا ، وَقُلْ لَهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا . وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ ، وَقُلْ رَبِّ

أَرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا »[1] فى هذا الوقت خشى أن تفقد هذه العاطفة المهذبة التى تتمثل فى الطاعة وعدم المعارضة إلى مجال الاعتقاد فى الألوهية ، يحذره من الطاعة لها ، إذا نصحاه بالشرك فى الاعتقاد : « وإِنْ جَاهَدَاكَ على أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا » والقرآن يحذر الولد — ذكرا أو أنثى — من طاعة الوالدين فى اتباع نصحهما بالشرك ، لايبغى سوى وقاية الولد من خطر الشرك ، ومغبة نتائجه عليه وعلى مجتمعه .

أما فى الآية الثالثة — عندما يناشد القرآن أهل الكتاب الاستجابة إلى كلمة سواء متفق عليها — فليست هذه الكلمة سوى عبادة الله وحده ، التى عبر عنها قوله : « ألا نعبد إلا الله » . ولكنه أردف هذه الكلمة بتفصيل عبر عنه بقوله :

« وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا » ثم يقول على وجه التأكيد : « وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللهِ »

ليوضح ، أولا : أن الشرك بالله ، واتخاذ الناس بعضهم بعضا آلهة من دون الله ، ينافى عبادة الله وحده . فمنطوق هاتين العبارتين يؤكد مفهوم العبارة الأولى ، وهى « ألا نعبد الا الله » . وثانيا : لينص : على أن الشائع المعروف من الشرك وعبادة الناس بعضهم بعضا فى ذلك الوقت — وفى كل وقت بعده — هو انحراف فى الاعتقاد ، ضار بالإنسان وبإنسانيته . وشيوع الأمر لايبرر صحته وكثرة الحديث عنه والاستمرار فى ممارسته ، لايصلح دليلا على أنه حق فى واقع أمره .

وعندما ناشد أهل الكتاب إلى ذلك ، طلب — فى حالة رفضهم — إلى المؤمنين أن يعلنوا هم وحدهم أنهم : مسلمون ، أى مطبقون لدعوة الله فى كتابه . وهى الدعوة إلى وحدة الألوهية : « ألا نعبد إلا الله » حفاظا على أمنهم فى علاقة

---

(١) الاسراء : ٢٣ ، ٢٤

بعضهم ببعض ، وصونا لكرامتهم الإنسانية . والمسلم بذلك هو الذى يحرص على عبادة الله وحده ، ليتخذ منها الاعتزاز بأنه إنسان يعرف قدر نفسه ، كما يعرف قدر ربه ومن يعرف الأمرين لايكون مستهجنا فى تصرفاته وسلوكه ، ولامنحطا فى اعتقاده ، ولا ذليلا ممتهنا ، ورقيقا مستعبدا لإنسان مثله .

إن الإيمان بوحدة الله هو عنوان الإيمان بالإنسانية بما لها من كرامة ، وحرمات ، وقدرات فى الإنشاء والإبداع . وهذا هو هدف الوحدة فى العبادة (١)

الوحدة فى ذات الانسان :

إن الله الذى يعبد وحده : « هُوَ اللهُ الَّذِى لاَ إِلهَ إِلَّا هُوَ ،عَالِمُ الْغَيْبِ.

---

(١) ووحدة الله هى اذن وحدة ذاته وتفرده : لا مثل شبيه له . هو فرد واحد . وليس المراد بالوحدة ما عناه فلاسفة المسلمين ـ نقلا عن الاغريق فى صفات واجب الوجود ـ وسايرهم فيه رجال المعتزلة من علماء الكلام الاسلامى : من عدم تركيب الذات تركيبا حقيقيا ، أو تركيبا اعتباريا تصوريا . لأن هذا لا يدخل فى المفهوم القرآنى لوحدة الألوهية . فآيات الوحدة فى القرآن تستهدف فقط : نفى الشريك خارج وجود ذات الله سبحانه وتعالى ، كما تستهدف نفى مماثلة الله للانسان فيما هو خاص به : من ولادة ، وزواج .. وغير ذلك مما ينسب اليه ، ويجوز عليه ، ومما كان شائعا فى اعتقادات الناس . ثم أيضا ما تعنيه الوحدة فى وصف العلة الأولى لدى الاغريق يبتعد كثيرا عن منطق الاسلام فى ذاته كدين . فمنطلق الدين : أن يكون ما يعنيه قريبا من ادراك الناس جميعا ، وليس مفهوما فحسب لدى الخاصة . ولا شك أن « الوحدة » بمعنى عدم التركيب فى الذات ، والصفات ، والأفعال أمر خارج عن نطاق الادراك العادى ، وقاصر على ادراك أولئكم الذين وقفوا على أصول الفكر الاغريقى فى الفلسفة الأرسطية وغيرها .

فتكليف الناس جميعا بالايمان بوحدة الله على هذا المعنى يخرج عن نظام القدرة الانسانية فى آحاد الناس . ومن هنا كان ترديد الوحدة بمعنى عدم التركيب من أجزاء تركيبا حقيقيا ، أو اعتباريا فى التصور فحسب ، فى كتب الفلاسفة وعلماء الكلام ، فوق : أنه اضافة دخيلة على الاسلام فى شرح مبادئه فهو فى الوقت ذاته مصدر تعقيد لفهم وحدة الألوهية من جانب ، وحائل من جانب آخر دون انعكاس هذه الوحدة فى عبادة المؤمن على ذاته : سواء على التنسيق بين ما له من ثنائية كانسان ، أو على تنمية هذه الذات فى اتجاهها فى الحياة .

والشَّهَادَةِ ، هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ، هُوَ اللهُ الَّذِي لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ : الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ — السَّلاَمُ — الْمُؤْمِنُ الْمُهَيْمِنُ — الْعَزِيزُ — الْجَبَّارُ — الْمُتَكَبِّرُ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ . هُوَ اللهُ الْخَالِقُ — الْبَارِئُ — الْمُصَوِّرُ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »[1] ، وعبادة الله الواحد على هذا النحو يجب أن تنعكس على ذات الإنسان من المؤمن والعابد فى وحدتها مرة .. وفى تنمية هذه الذات مرة أخرى ..

إن الإنسان فى ثنائيته بين العقل والغرائز يجب أن يسير فى تفكيره ، وفى وجدانه وإرادته وسلوكه العملى : فى اتجاه منسق لا تجاذب ولا تضارب فيه بين الطرفين . والذى يوصله إلى التنسيق فى اتجاهه فى الحياة ، هو : الإيمان بوحدة الله ، وليس الإيمان على أى نحو . وما لم يصل المؤمن العابد إلى هذا التنسيق بين ثنائيته ، فإن عبادته لله تكون على حرف . وعندئذ ليس هناك ضمان فى أن تنقلب غرائزه ، وينقلب على وجهه ويرتد عن الإيمان بهذه الوحدة . إن وحدة الإنسان فى ذاته وعدم توزع نفسه بين قوتين تختلفان فى الشد والجذب بينهما .. هدف يسعى إليه الإنسان بطبيعته ، بحكم ، أنه : أعد بالإدراك ، بجانب مايشارك فيه غيره من الغرائز . وقد ينجح فى سعيه إلى هذا الهدف مرة . ولكن كثيرا مايتعذر عليه تحقيقه بسبب النضوج المبكر لغرائزه ، والبطء فى خروج إدراكه من دائرة الاستعداد والإمكان .. إلى نطاق الفعل والواقع . وبعدم التعادل فى النضوج بين طرفى الثنائية فى الإنسان ، قد يميل التوجيه لديه إلى جانب الأقوى . وهو الأكثر نضوجا منهما . وبهذا يشتد ساعد الأقوى ، حتى إذا أخذ الطرف الثانى — وهو الإدراك — فى القوة ، ابتدأ الصراع بينهما . وهو صراع يختلف أمده ، كما تختلف درجته من وقت لآخر .

---

(١) الحشر ٢٢ : ٢٤ .

ولتجنيب ذات الإنسان هذا الصراع الداخلى ـ أو على الأقل : لتجنيب الإنسان طول أمد هذا الصراع ، ولتخفيف حدته ودرجته ـ كان الإيمان بوحدة الله فى ذاته عاملا فاصلا ومساعدا فى الوقت نفسه ، على إبلاغ الإنسان لهدفه من التنسيق فى الاتجاه بين طرفى ثنائيته .

فالله الذى يجب على الإنسان أن يؤمن بوحدته ، وبالتالى يجب عليه أن يوجه اليه العبادة وحده .. هو جامع لصفات ؛ ومن شأنها لو انعكست على ذات الإنسان بمحاكاته إياها ولسعيه إلى التقرب منها : أن تستخلص من ثنائيته وحدة قوية منسقة ، يكاد ينعدم فيها التعدد ؛ كما ينعدم التعدد على سبيل الحقيقة فى ذات الله جل جلاله . فعبادة الانسان لله تنطوى على محاولة من الإنسان للتقرب إليه . وإلا بقيت الفجوة قائمة بين الله والإنسان . وبذلك لا تكون لعبادة الله أى أثر إيجابى فى حياة الإنسان . وتقرب الإنسان إلى الله ليس تقربا : فى مكان ، أو فى زمان . أى ليس مجاورة مكانية ، وليس معية فى وقت خاص . وإنما بمحاكاته صفات الله فى ذاته وكلما كان الإنسان أعمق فى المحاكاة كلما كان أقرب إليه . ولكنه مهما بلغ من عمق محاكاته ، فإنه يستحيل عليه : أن يكون مثله وعلى شاكلته فيها . ومن هنا كانت فكرة : « الاتحاد » — وهى اتحاد الإنسان بالله — فى بعض الاتجاهات الصوفية الشرقية القديمة قائمة على المبالغة فى معنى : « الفناء فى الله » . إلا إذا قصد بالفناء : تناسى الذات الإنسانية كلية ، وتجاهل مطالبها فى الحياة المادية القائمة ، والاكتفاء بـ « الحب الإلهى » فى حياة الذات : عن أية متعة أخرى دنيوية . وكأن ذات الإنسان لا ظل لها فى الوجود ، إلا فى ذات الله سبحانه وتعالى .

ومضت الآيات الثلاث السابقة ذكرت الله بصفات ترجع فى جملتها إلى أربعة أنواع :

١ — مايتعلق بكمال الذات : فوصفته بأنه يعلم الغائب والشاهد على السواء كما وصفته بأنه القدوس أى المنزه عن كل قبيح .

٢ — وما يتعلق بالخلق والإبداع فيه : فوصفته بأنه الخالق والمنشىء، والبارىء الذى برىء خلقه عن كل نقص ؛ والمصور الذى جاء خلقه وإيجاده وفق حكمته .

٣ — وما يتعلق بوضعه فى الوجود : فوصفته بأنه المهيمن والرقيب على كل شىء ، والعزيز الذى لا نصيبه هزيمة ولا مذلة ، والمتكبر صاحب العظمة ، والجبار الذى يخضع له من دونه .

٤ — وما يتعلق بصلته بالمخلوقين : فوصفته بأنه السلام الذى يعدل ولا يظلم والمؤمن الذى يهب من يطيعه الأمان فى دنياه وآخرته ، والرحمن الذى تنفذ رعايته إلى المتوكلين عليه ، والملك الذى له التصرف فى مقادير الأمور .. هذه الأنواع الأربعة من الصفات لله جل جلاله وهى : العلم بأوسع دوائره ، والترفع عن الدنايا والإبداع فى الإيجاد والخالقية ، والعزة والكرامة ، والعدل فى الفصل ، ورعاية الآخرين وتوفير أسباب الطمأنينة والرعاية لهم .. يجب أن تنعكس على تصرف العابد الذى آمن بالله حق الإيمان به : يجب أن يسعى العابد إلى العلم . وكلما كثر سعيه واتسعت دائرة معرفته كلما كان أقرب إلى الله فى عبادته .. يجب أن يترفع العابد عن الفواحش والمنكرات وجميع ضروب القبائح . ويسعى إلى أن يكون على نمط الله سبحانه وتعالى فى تنزهه وفى قدسيته .. يجب أن يكون العابد ذا إيجابية فى حياته ، وذا خالقية وإبداع فيما يعمل ويصنع وإلا كان ذا انفصالية فى عبادته ، وذا حياة مزدوجة : لا يلائم أحد وجهيها .. الوجه الآخر .

وبالتالى كان بعيدا عن الله وما تطلبه عبادته .. يجب أن يعمل العابد المؤمن على عزة نفسه ، فلا يعرضها لمهانة السؤال والحاجة ، ولا يضعفها بالانغماس فى الشهوات ؛ فتذل ويهون أمرها على الذات والغير معا .. يجب أن يكون العابد ـ بوحى من عبادته لله تعالى ـ على علاقة طيبة بالآخرين معه فى مجتمعه وأمته وأن يكون نمط هذه العلاقة هى : التكفل بالرعاية للغير . سواء فى توفير الاطمئنان له بالمساعدة المادية إن احتاجها ، والمساعدة المعنوية فى المجاملة والتعاطف

والتواد ، أو فى القضاء بالعدل بحيث يكون مالكا لزمام نفسه وأهوائه عندما يفصل ويقضى .

إن محاكاة المؤمن العابد لله وحده فى صفاته — على النحو الذى ذكرنا — سترفع حتما فى ذاته تضارب الثنائية وتناقض الاتجاه فى توجيهها ؛ لأن المعرفة فى نطاق التوجيه ، والترفع عن القبائح والتنزه عن الفواحش والمنكرات : فى السلوك ، والإيجابية : فى العلاقة بالآخرين ، والرغبة الأكيدة : فى تجنب المهانة والذلة . كل ذلك — لو تم — يشير إلى الاتجاه الموحد للذات نحو المستوى الإنسانى الفاضل .. أى يشير إلى بلوغ الإنسان هدفه فى الإنسانية . إذ ما يجر الذات إلى ارتكاب المذموم من التصرفات والسلوك ، أو إلى التزام جانب الأنانية فيما تفعل لنفسها أو ضد غيرها ، هو طواعيتها للهوى ولشهواتها ، عندما تباشر ما أنت به ، من : مذموم ، أو من إيذاء وضرر . ومن هنا إذ قال القرآن الكريم:

« إِنَّ الصَّلاَةَ تَنْهَى عَنِ الفَحْشَاءِ والمُنكَرِ » ..

فذلك ، لأن واجب المؤمن بالله وحده عن طريق عبادته — وفى مقدمة فروضها : الصلاة — أن ينتهى فعلا عن الفحشاء والمنكر فى تصرفاته وأفعاله ، وأن يمد إيجابيته بعد ذلك إلى الغير بمعاونته ، والمحافظة على حرمته الشخصية ، فى : عرضه ، وفى ماله ، وفى عهده ، على نحو ما تصف الآية القرآنية الأخرى :

« قَدْ أَفْلَحَ المُؤْمِنُونَ ، الَّذِينَ هُمْ فِى صَلاَتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ العَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ »(١) .

(١) المؤمنون من ١ : ٩ .

obeikandi.com

فالذى يعرض عن لغو القول ، ويحفظ فرجه من الزنا ، يكون قد ارتفع فعلا عن الفاحش ، والمنكر ، والمذموم ، فى التصرفات . فإذا أضاف إلى ذلك : أنه يؤدى الزكاة ، ويرعى الأمانة والعهد للغير فيفى بهما ، يكون قد امتد فعلا بإيجابيته إلى غير فى الرعاية والمعاونة . وليس ذنب الإيمان — كطريق فى الحياة — أن ينفصل المؤمن عن ذات الله فى محاكاتها فيما لها من صفات . وإنما هو المؤمن نفسه ، إذ يعزل ذاته عن التأثر بالله فى عبادته إياه . . هو ذنب مستوى إيمان المؤمن الذى لم يتجاوز الشكل والظاهر فيما ينطق به اللسان أو تأتى به الجوارح .

٣ — الوحدة فى اتجاه المجتمع .

وكما يجب أن تنعكس عبادة الله وحده على ذاتية الإنسان الفرد ، فتوجد فيها اتجاها منسقاً موحدا بين الغرائز والعقل فيه : كذلك يجب أن تنعكس على اتجاه مجتمع المؤمنين ككل بين الأفراد ، فيكون لهم اتجاه موحد منسق ، فالثنائية فى الفرد هى بين العقل والغرائز ، موجودة أيضا بين الفرد والفرد فى المجتمع ، نتيجة لما بينهما من فروق : تنشأ من اختلاف فى مستوى الانسجام بين ثنائية ذات كل فرد على حدة . يقول الله تعالى :

« إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ »(١) .

فأشار إلى المؤمنين فى تجمعهم ، وأخبر بأن تجمعهم يكون الآن أمة المؤمنين : « إن هذه أمتكم » — ثم وصفها بأنها « أمة واحدة » . ولكى تستمر وحدتها يدعوهم إلى الاستمرار فى عبادته لله وحده دون غيره : « وأنا ربكم — أى لا غيرى — فاعبدون » . وكما هو شأن الفرد : إذا لم تنعكس عبادته لله على ذاته فى وحدة اتجاهها فى الحياة يكون ذلك بسبب الانفصالية القائمة بينه وبين الله والتى لم يستطع الفرد التغلب عليها . . فكذلك المجتمع : إذا لم تنعكس عبادة المؤمنين فيه لله وحده على تصرفاتهم ككل ، وكأمة ، وكمجتمع . . فإن وضع عدم الانسجام عندئذ يكون بسبب ذات الانفصالية التى لم يستطع أن يتغلب عليها كل

---

(١) الأنبياء : ٩٢ .

فرد أيضا . لأن المجتمع هو أفراد اجتمعوا حول غاية واحدة . فإذا كانت هذه الغاية، هى : عبادة الله وحده ، ولم تدل من نفوس الأفراد ، فإنها غير قائمة أيضا فى المجتمع الذى يتكون منهم . ويكون سبب عدم قيامها فى المجتمع ، هو : سبب عدم تأثيرها فى نفوس الأفراد كأفراد .

ومن أجل ذلك إذ يناشد القرآن الكريم المؤمنين فى صورة جماعية الوصول إلى الوحدة فيما بينهم ، والتمسك بها ، فإنه يناشد فى حقيقة الأمر كل فرد على حدة فى ذلك . فإذ يقول :

« وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا ، وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا. كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ »[(١)] .

يطلب إلى كل فرد أن يتذكر ما كان عليه مجتمع الجاهلية السابق ، من : فرقة واختلاف بسبب الشقاق ، أو التمزق الذى كان فى ذات الأفراد ، والذى كان مظهره : التضارب فى الاتجاه . . وأن يتذكر أيضا ما أدت إليه هذه الفرقة من العداوة بين الأفراد والتهديد بانهيار المجتمع كله ، وفنائه عن طريق حدة الخصومة والنفرة بينهم . . كما يطلب إلى كل فرد كذلك : أن يتذكر فى حاضره نعمة الوحدة التي نجمت عن الإيمان بوحدة الألوهية وعبادة الله وحده ، تلك الوحدة التى كان من آثارها : تحول العداوة بين الأفراد إلى أخوة فى العلاقة بينهم ، وتحول الفرقة إلى ألفة ، والانهيار والسقوط إلى السمو والتماسك فى البقاء . وكان هذا التحول آية من آيات الله التى تدل على قدرته وإرادته فيما يدبر . ولا شك أن هذا التحول

---

(١) آل عمران : ١٠٣ .

سيوحى لهم بالاستمرار فى اتباع هداية الله ، كما جاءت فى كتابه الكريم لأن اتباع هدايته ، هو : الضمان للبعد عن الطواعية للأهواء ، وعن التأثر بالشهوات فى الاتجاه ، وفى الوقت نفسه : فيه بعد عن جاهلية المجتمع ، وما تدفع إليه من سقوط وانهيار بعد عداوة وفرقة بين الأفراد فيه : كمقدمة لهذا السقوط والانهيار .

ولكى يستمر المؤمنون فى اتباعهم لهداية الله يطلب إليهم القرآن — بعد أن يذكرهم بماضيهم ، ويلفت أنظارهم إلى حاضرهم — أن تقوم جماعة فى غير انقطاع بالدعوى إلى هذه الهداية ، حتى لا تكون هناك فرصة ، إذا ما انقطعت الدعوة لفترة طويلة ، للتراخى فى إيمانهم ، أو الوقوع تحت التأثير بأهوائهم وشهواتهم . ولذا يقول: « وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ ، وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ ، وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » .

وما يطلبه القرآن هنا من الدعوة إلى الخير والأمر بالعروف والنهى عن المنكر : يصور قوام الهداية الإلهية . فليست هى أكثر من فعل الخير ، وإيجابية الإنسان فى علاقاته بالآخرين ، وإلى السلوك المستقيم الذى يبتعد فيه الإنسان عن الإيذاء والإضرار بالغير . ومن أجل الأثر الإيجابى لوحدة الألوهية فى الاعتقاد والإيمان على وحدة المجتمع ، وتماسكه وبقائه قويا عزيز الجانب فوق المهانة والمذلة . . يطلب القرآن الكريم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غير آية — وإلى المؤمنين معه ، وبعده — أن يتجنبوا ، بحرصهم على الإيمان بوحدة الله ، ما آلت إليه المجتمعات السابقة ، من : الانفكاك والفرقة ، بعد أن سقطت إلى الوثنية والشرك فى الاعتقاد . فيقول : « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ، ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ ، وَاتَّقُوهُ ، وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ، وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ . مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ[1] » .

---

(١) الروم : ٣٢ .

والآية هنا لا تجعل سبب التمسك بوحدة الألوهية فى الاعتقاد ، هو : بقاء المجتمع متماسكا وعدم فرقته وتفككه فحسب ، بل تضيف إلى ذلك : أن الدين الذى يدعو إلى هذه الوحدة يعبر عن الفطرة البشرية ومساوقة الطبيعة الإنسانية الخالصة ، التى خلق الله عليها الناس ، وأنه من أجل ذلك ليس هناك تبديل وتغيير فيما خلقه الله . هو دين قيم يستحق أن يحرص عليه الإنسان ، ويتمسك به رغم جهل كثيرين بهذه الحقيقة من أولئكم الذين يكفرون به ويحادونه . ثم تنذر بأن الخروج عن « الوحدة » فى الألوهية إلى الشرك كان سبب الفرقة فى المجتمعات السابقة ، وتشيع الطوائف والكتل والأحزاب . ومن شأن الفرق أن تتمسك كل فرقة وطائفة بما لديها وأن تعتز به ، مما يدعوها كلها إلى التخاصم فيما بينها ، ثم إلى القتال ، فالسقوط والانهيار لجميعهم ، وليس لواحدة أو عدد منها . وهذا الخروج عن الوحدة فى الألوهية إلى الشرك سبب كذلك للفرقة فى المستقبل . إذ أنه يستلزم نفس النتائج ، التى استلزمها فيما مضى . وهى : الفرقة ، والطائفية ، والحزبية ، والتعصب للفرقة والطائفة والحزب ، ثم الخصومة فالعداوة فالسقوط .

ووحدة المجتمع فى الإتجاهات التى يثيرها الإيمان بالله وحده . لا تنفى الأفضلية فيما بين الأفراد فى القرب إلى الله . كما لا تنفيها فى الأرزاق وتوفر أسباب المعيشة لفريق على فريق . أو بعبارة أخرى : إن التفاضل بين الأفراد فى قربهم من الله ، وفى معايشهم لا ينبغى أن يكون عاملا ضد التجانس فى الاتجاه ، الذى يطلب أن يكون عليه وضع المجتمع الإسلامى كمجتمع مؤمن بالله وحده . فالتجانس فى الاتجاه أو الوحدة فيه ، هو : الوحدة فى الهدف ، والتجانس هو فى استقامة السلوك . بينما التفاضل فى القرب من الله ، هو : التفاضل فى مدى تحقيق الهدف فى ذوات الأفراد ، وفى مدى تطبيق الاستقامة فى سلوكهم . أما التفاضل فى الأرزاق ووسائل المعيشة ، فيعود إلى الطاقات البشرية . وهى مختلفة فى الأفراد التى يحصل بها الإنسان رزقه ، أو ترجع إلى ما يسمى بالاستعدادات الطبيعية للكسب والاقتناء ، بالإضافة إلى إرادة الله فى ذلك .

ووحدة الهدف للمؤمنين هى عبادة الله وحده . والمؤمنون جميعا ، سواء فى ذلك . ولكنهم يفترقون عند تحقيق هذا الهدف من العبادة ، فى مدى ما أوصلتهم عبادتهم لله من القرب منه أى فى مدى سعيهم — عن طريق هذه العبادة — إلى أتصاف أنفسهم بما عليه الله من صفات : العلم ، والخالقية ، والعزة ، والترفع عن القبائح والاستغناء عن مذلة السؤال ، والحاجة ، والرحمة فى العلاقة بالآخرين . الخ .

واستقامة سلوك المؤمنين أمر مطلوب منهم جميعا . وهم متجانسون فيه . ولكنهم كذلك يتميز بعضهم على بعض ، فى مدى تطبيق الاستقامة التى تقوم على فعل ما أمر به الله أن يفعل ، وترك ما نهى عن فعله . فالمساواة بين المؤمنين فى الهدف قائمة ، والتجانس فى السلوك أمر عام بينهم كذلك . والتفاضل من جانب آخر بينهم حقيقة واقعة ؛ سواء فى : مدى تحقيق الهدف فى العبادة ، أو فى : مدى تطبيق الاستقامة فى السلوك . وهنا إذن . مساواة ، وتفاضل ، أو وحده وتميز . ويتضح ذلك فيما يطلبه القرآن الكريم من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، من أن يكون إيمانه بالله نموذجا ، وأن تكون استقامته فى السلوك متميزة » :

« قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصاً لَهُ الدِّينَ . وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ »[1] .

فى الآية الاولى : يطلب منه الإخلاص فى الإيمان . ومعنى الإخلاص فى الإيمان . ومعنى الإخلاص فيه : أن تنعكس صفات الله جل شانه على ذات الرسول ، بحيث تكون درجة القرب بينهما لا يتمتع بها الرسول الكريم . وبذلك يكون قدوة حسنة ، يتفاضل المؤمنون فى محاكاتها . وفى الآية الثانية : يطلب منه أن يكون أول المسلمين : فى تطبيق الإسلام بما اشتملت عليه أوامره ، ونواهيه ، ووصاياه . أى يطلب منه : أن يبالغ فى استقامة السلوك حدا يعبر به أول المسلمين قاطبة ، فيما قبل رسالته ، ووقت رسالته ، وبعد رسالته ، أى يصير بها مثلا يضرب به ، ويدعى إلى أن يكون الآخرون على غراره . والآخرون الذين

---

(١) الزمر : ١١ ، ١٢ .

أن يكونوا على غراره . يتفاوتون حتما فى محاولاتهم . وهنا يقع التفضيل والتمييز بعد المساواة فى الوصف أو فى المطلب .

أما التفاضل فى الأرزاق ووسائل العيش فلا يرتبط بالإيمان ولا بالكفر . وإنما هو أولا وقبل كل شىء إرادة الله : « وَلَمَّا جَاءَهُمُ الْحَقُّ قَالُوا: هَذَا سِحْرٌ ، وإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ . وقالُوا : لَوْلاَ نُزِّلَ هَذَا الْقُرآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيا (ليتعاون بعضهم مع بعض فى أداء الخدمات فصاحب المال يدفع الأجر وفاقد المال يؤدى الخدمة فى مقابل الأجر) وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ . وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَعارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَاباً ، وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ ، وَزُخْرُفاً ، وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، والآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ »[1] . . وهذه الآيات القرآنية توضح ثلاث نقاط :

١ — الأولى : موقف الكافرين من « الحق » — وهو القرآن — عندما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم . وهو موقف الإنكار والتحدى . فوصفوه بأنه : سحر ، وطالبوا بأنه كان يجب أن يأتى به أحد عظماء القوم ووجهائهم وأثريائهم فى : مكة ، أو فى الطائف ، وليس من آحاد الناس .

---

(١) الزخرف : ٣٠ ـ ٣٥ .

٢ — النقطه الثانية : رد القرآن عليهم فيما طالبوا به . وذلك بإنكار : أنه من شأنهم ، أو من شأن البشر على العموم ، اختيار من يحمل رسالة الله ورحمته ، ثم بالإخبار بأنه إذا كان توزيع الأرزاق والمعايش الدنيوية من فعل الله وليس من فعلهم ، فكيف بتوزيع الرسالات واختيار من يحملها ؟

وهنا يبرز القرآن أن الاختلاف فى الأرزاق ورفع بعض الناس فوق بعض درجات : فى المال والثراء ، أمر ضرورى لا مفر منه . وهو للتعاون على أداء الخدمات . فالذى يملك المال يقدمه . والذى لا يملك إلا العمل يعرضه : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا » (. أى ليتخذ بعضهم بعضا من يسخره ويؤجره على العمل . وبذلك يتم التعاون من جانب ، كما يتم إنجاز الخدمات من جانب آخر) . ولولا هذه المفارقات فى الثراء وملكية المال ، لما قام مجتمع مدنى ، ولما قام كذلك : تعاون أصلا بين الأفراد على سد الحاجات . إذ أنهم لو كانوا متساوين فى : الثروة ، لما عمل واحد لآخر ، ولما وجد أحد من يعاونه فى أداء ما يطلب . ولو كانوا أيضا متساوين فى : عدم ملكية المال ، لما وجد صاحب القدرة على العمل من يؤجره على عمله ، ولما وجد أيضا صاحب الحاجة إلى العمل ما يدفعه أجرا لمن يعاونه فيه . ، فتلك المفارقات فى سنن المجتمع البشرى اللازمة . على أنه من جانب آخر لو كان هناك تساو فى : ملكية المال ، أو فى عدم ملكيته ، لكان هناك تنافر حتما بين المالكين وبين الذين لا يملكون المال . لأن المساواة التامة مدعاة للخصومة بين الأنداد . إذ ليس هناك من يعطى ولا من يأخذ ، حتى يكون هناك التقاء على الإعطاء مقابل الأخذ ، وإن كان عند ئذ كل من الطرفين معطيا وآخذا فى الوقت نفسه . وإذا كان هناك التقاء فليست هناك تفرقة ولا خصومة ، طالما أن هناك عدلا فى المعاملة والالتقاء .

أن المتساوين فى ملكية المال لا يجدون بينهم من يأخذ . وأن المتساوين الآخرين فى عدم ملكية المال لا يجدون بينهم من يعطى . فهم أشباه ، ونظائر ، وأنداد ، يتحولون إلى أضداد : ونظام الشيوعية فى ملكية المال — أو نظام

وأساليه الدولة فى النظام الماركسى اللينينى — ليس قائما على المساواة فى ملكية : المال ، أوعدم المساواة : فى ملكيته . وإنما هو نظام يقوم على الثنائية والازدواج أيضا : فيه من يعطى ، وفيه من يأخذ : أما المعطى فهو الحزب الشيوعى أو هيئته التنفيذية التى تحكم وتوجه ، وأما الآخذ فهم الملايين الأخرى فى مجتمع النظام . وكل ما هنالك من فرق بين النظام الديمقراطى أو نظام العمر الحر ، والنظام الاشتراكى الماركسى هو : أن رأس المال فى النظام الديمقراطى يملكه أفراد — وهم قلة — ويلتزمون بقوانين الدولة التى هى حكم بينهم وبين لا يملكون إلا العمل . بينما فى النظام الاشتراكى : يتصرف فى رأس المال القومى كله عدد من الأفراد ، وهم قلة أيضا . هم أصحاب السيادة على الدولة ، وهم الحكم ، على من يأخذ العمل ، وهم الملايين من الأجراء . أى أن هذه القلة هى : أصحاب التصرف فى المال ، وأصحاب السيادة فى الدولة ، وهم الحكام المنفذون ، والقضاة الذين يفصلون . وهذه العناصر الثلاثة تكون . « دكتاتورية الحزب » .

وعلى فرض : أن القلة من الأفراد فى النظام الرأسمالى الديمقراطى — وهى المتحكمة فى رأس المال — تستغل نفوذ المال بيدها ، فى : قوانين الدولة وتحريك أجهزتها لمصلحتها الخاصة . . فيكون هذا النظام عندئذ ، ونظام رأس مالية الدولة فى الأيديلوجية الماركسية وفى التطبيق اللينينى لهذه الأيديولوجية ، لا يختلف أمر أحدهما عن الآخر ، فى : السيطرة على الدولة ، وعلى الفصل فيها .

ومع أن هذا التفاوت فى ملكية المال يراه الإسلام أمرا ضروريا لتعاون المجتمع ولقيام نظامه كما يقرر القرآن هنا . . ومع أن هذا التفاوت لا حدود له فى نظره ، حسب ما أطلقته الآية : « ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات » فلم تقيد هذه الدرجات بحد أقصى . « واللهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَاب » . .

ومع أن القرآن يصرح بأن هذا التفاوت لتمكين صاحب الكثرة من المال لمن لا يملك إلا القليل منه أو لمن لا يملك منه أصلا بالقيام بالعمل وإنجازه . . مع هذا كله . فالإسلام من جانب آخر : يمنع الاستغلال عن طريق المال . . يمنع استغلال مالك المال ، لصاحب الحاجة إليه .

وتحريم الإسلام الربا فى قوله تعالى . وأحَلَّ اللهُ البَيعَ وحَرَّمَ الرِّبا » . .

آية واضحة على تحريمه : أن يكون المال مصدر استغلال لمن يحتاجه . إذ قضية الربا تتصل بقضية الأقوات ومصادر المعيشة الأولية والضرورية لكل إنسان . فإقراض أية مادة ربوية بنفع زائد على المثل ، يصور : الاستغلال للحاجة تصويرا واضحا . وتحريمه الربا على سبيل قاطع يؤذن بتحريم الاستغلال عن طريق المال فى أية صورة من صور الاستغلال .

٣ — والنقطة الثالثة . أن المال من متاع الحياة الدنيا وحدها . وقيمته ، مهما كثر ، لا تستوى مع ثواب الآخرة الذى أعد للمتقين والمؤمنين دون من سواهم . ومن أجل أن قيمة المال لا تدل ملكيته أو الكثرة فى اقتنائه على أن الذى يملكه خير عند الله ممن لا يملكه ، كما لا يدل التفاوت فى ملكيته على أن صاحب الكثرة فيه خير من صاحب القلة فيه وقريب عند الله . ونتيجة ذلك . أن الكافر الغنى بماله ، ليس خيرا عند الله من المؤمن الفقير أو قليل المال . ولولا أن يكون الإفراط فى ثراء الكافر دون المؤمن ، سببا فى التأثير على نفس المؤمن كإنسان وبشر يتعرض لإغراء المال ، وبذلك لا يكون هناك مؤمن ، ويكون الناس عندئذ أمة واحدة فى الكفر . . لوهب الله الكافرين من المال والثراء ما يجعل مساكنهم ، وما يستمتعون به فيها . من ذهب ، وفضة .

« وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (أى فى الكفر) لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْوَابًا وسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ . وَزُخْرُفاً » : ولكن المال عرض من أعراض الدنيا ، « وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، والآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ » . فالمال غير ذى صلة بقيم الناس ومنازلهم عند الله . فهو لا يؤمن صاحبه من عقاب إن كفر ، ولا يقربه إلى الله بغير عمل صالح إن آمن به .

والله إذا كان صاحب المشيئة فى قسمة المال بين الناس جميعا ، وصاحب الشأن فى العطاء للكثير أو القليل منه ، وتمييز البعض على البعض الآخر فيه .

« نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ » فقد يكون عطاؤه القليل منه للمؤمن أو حرمانه كلية منه ، ابتلاء واختباراً لإيمانه : « وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ »[1] . طالما أن الدنيا مرحلة أولى فى حياة الإنسان وليست بنهائية ، فهى مرحلة تجربة واختبار قبل أن تكون مرحلة إمتاع أو شقاء .

والذى يقدر المال ويقومه بقيمة ذاتية تجعل منه هدفا للاستمتاع بالحياة ، هو : من يرى أن الإنسان له حياة واحدة هى التى يعيشها على الأرض فى الدنيا : « زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ »[2] . « إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ، وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا »[3] . وَلَكِنَّ الَّذِي يُؤْمِنُ بالآخرة — وهو من يؤمن بالله — ينقل الثقل على نوع الحياة هناك ، ويجعل الدنيا ممراً فحسب إليها . يجب عليه أن يعبره وأن يجتازه مطمئنا إلى نصيبه فى الحياة الآخرة : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى : لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ »[4] .

---

(١) البقرة : ١٥٥ .
(٢) البقرة : ٢١٢ .
(٣) الدهر : ٢٧ .
(٤) الشورى : ٣٦ .

والأرزاق ومصادر العيش إذا كانت من فضل الله، كما تذكر آيات عديدة، منها قوله تعالى: « وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا ، وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ (وهى الجبال)، وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (مما يوزن عادة من المعادن التى توجد فى الجبال) ، وجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (ممن لا يستطيعون الكسب كالأطفال، والأنعام) وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ ، وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ »[1] . ومنها قوله : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ : أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ، ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ، فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا وَعِنَبًا وَقَضْبًا ، وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ، وَحَدَائِقَ غُلْبًا ، (أى كثيفة الأشجار) ، وفاكهة وأبًّا (أى مراعى) ، مَتَاعًا لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ »[2] ..

ففضل الله فيها هو خلقها على وجه ينتفع بها . وإذا باشر الإنسان فيها الانتفاع بنفسه ، فللانسان كسب وعمل ، بجانب فضل الله وإعداده لمصادر العيش . بدليل قوله تعالى فيما سبق هنا : « وجعلنا لكم فيها معايش ، ومن لستم له برازقين » . فقسمت الآية المنتفعين بالرزق إلى نوعين : نوع يمارس نشاط النفع بنفسه ، ونوع آخر يعجز عن مباشرة هذا النشاط بنفسه لسبب أو لآخر ، كصغار الأطفال أو الأنعام ، وهم المقصودون بقوله : « ومن لستم له برازقين » .

ثم يقول القرآن فى آية أخرى معبرة صراحة عن عمل الإنسان ومباشرته له بجانب فضل الله : « هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا (أى قابلة للتمهيد والانتفاع بما يمهد فيها) ، فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ، (طرقها التى تعبد) وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ ، وَإِلَيْهِ النُّشُورُ »[3] .

---

(١) الحجر : ٢١ .
(٢) عبس ٢٤ ـ ٣٢ .
(٣) الملك : ١٥ .

فقد طلبت هذه الآية من الناس أن يباشروا تمهيد الأرض التى خلقت على وجه تكون قابلة للتمهيد بفضل الله ، ثم يسيروا فيها لمباشرة الإنتفاع بها ، وعندئذ سيحصلون على رزق الله ويتمتعون به فى حياتهم . وبذلك ربطت الآية فى الحصول بالفعل على المعايش والأرزاق ، بين : عمل الإنسان من جانب ، وفضل الله من جانب آخر . فأما عمل الإنسان فهو فى مباشرة الاستغلال والانتفاع . وأما فضل الله فهو فيما أعده الله وهيأه للإنسان على الأرض التى يعيش عليها . وبذلك لايدرك فضل الله إلا عامل ومباشر بنشاطة الإنسانى للانتفاع . ولايصل إليه قاعد عن العمل ، مبدداً طاقاته البشرية فيما لا يعود عليه بالنفع . وبهذا يمكن فهم الآية الكريمة :

« وَلاَ تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ ، لِلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبُوا ، وَلِلنِّسَاءِ نَصِيبٌ مِمَّا اكْتَسَبْنَ ، وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ ، إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً »[1] . .

فقد نهت الآية عن الحسد بسبب ما حبا به الله بعض الناس على بعض ، فى : النعمة ، وأرجعت أن للنشاط الفردى دخلا فى هذا التمييز ، وطلبت إلى المؤمنين — بدل الحسد وتمنى زوال نعمة الغير — أن يتوجهوا إلى الله ليعينهم على مزيد من فضله ونعمته .

كذلك طلب الوحدة فى الاتجاه فى المجتمع عن طريق الإيمان بوحدة الألوهية لايمنع الاختلاف فى الرأى . فالاختلاف فى الرأى هو قانون بشرى . ومنشأه ، هو : اختلاف طبائع الأفراد ، تحت التأثير باختلاف عوامل البيئة ، والتوجيه . فإن وصل الاختلاف فى الرأى بين المسلمين إلى نزاع فيه ، يجب عندئذ الرجوع إلى كتاب الله وسنة رسوله الصحيحة ، حسما لهذا النزاع ، وحفاظا على وحدة المجتمع :

---

(١) النساء : ٣٢ .

« يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ ، فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ ، إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً [1] » ..

فالنص هنا على طاعة الله . وطاعة ما نقل من قول صحيح ، أو عمل ثابت لرسول الله صلى الله عليه وسلم « مقدمة مسلمة ، يرجع إليها عند النزاع فى طاعة أولى الأمر بسبب الاختلاف فى الرأى . فطاعة أولى الأمر — وهم أصحاب السلطة: فى المسئولية ، أو فى الرأى ، أو فى إنهاء الأمور وإنجازها ، مقرونة بموافقة تصرفاتهم وسلوكهم لما فى كتاب الله وسنة رسوله . وطاعتهم إذن محمولة على الطاعة لهذين المصدرين . فإن كانت هناك فجوة بين تصرفاتهم وسلوكهم من جانب ، وما فى هذين المصدرين من جانب آخر ، فلا تجب طاعتهم عندئذ . وشأن هذا شأن الحديث المنسوب إلى الرسول ولم يثبت عنده ، فإنه لا يجب العمل به . إذ وجوب العمل بالحديث لصلته الوثيقة بكتاب الله . ومن يولى فى المجتمع الإسلامى عند تطبيق دين الله يولى من خيار المسلمين ومن أكثرهم تقى وصلاحية لإمامة المسلمين، وزيادتهم ، حسب كتاب الله . وإذن : كتاب الله ، هو : الفيصل الحكم ، فى سياسة المجتمع . وفى الاختيار لقيادته ، وفى السلوك فيه . ولذا يطلب القرآن الكريم رد الخلاف إلى كتاب الله وسنة رسوله ، إن وصل الاختلاف مع أولى الأمر إلى درجة النزاع . كى ينهى المسلمون مشاكلهم الداخلية بطريق مأمون العاقبة . . فالكل يؤمنون بالكتاب والسنة ، والكل ينزلون عند الرأى الذى يوافق الكتاب والسنة .

أما العلاج عن طريق الانقلاب ، أو الثورة ، فلا يكون مشروعا إلا إذا دعت إليه ضرورة : درء المفاسد ، على نحو ما تدعو ضرورة دفع الاعتداء الخارجى من

---

(١) النساء : ٥٩ .

الأعداء ، أو ضرورة دفع الفتنة بين المسلمين ، وضرورة إنقاذ ركاب السفينة فى عرض البحر إلى دفع بعضهم إلى الماء تخفيفاً لحمولتها .

والحديث هنا عن المجتمع الإسلامى هو الحديث عن المجتمع الذى يؤمن — ولم يزل يؤمن — بالإسلام كدين ومنهج ، فى : السلوك العلمى وكنظام للحياة القضائية والسياسية والاقتصادية .

أما تلك المجتمعات التى تطبق : نظام « العلمانية » أو نظام الماركسية اللينينية الإلحادية[1] ، دون الإسلام كدين ومنهج للحياة — وبقى لها منه الوصف به فقط — فهى مجتمعات تحكم باسم الشعب ، أو باسم الطبقة العاملة ، وليس باسم الله وباسم كتابه . وهى مجتمعات نزلت من السماء إلى قاع الأرض . وولى الأمر فيها يتولى الشئون والسلطة ، إما بانتخاب شعبى تؤثر فيه عوامل مختلفة ، أو بثورة انقلاب أبيض أو أحمر على السواء .

إن المجتمعات الإسلامية الحاضرة تحكمها متناقضات عديدة : فيها بالمساجد : الدعوة إلى الله كمعبود منفصل تماما عن الحياة الإنسانية . وفيها علماء المسلمين يتجهون بإسلامهم فى الرأى لمساندة ما لا يفهمونه من نظم السلطة أو التسلط ، طمعا فى رضاء حاكم ، أو حرصا على فتات من قوت الدنيا ، أو على جاه شكلى من جاهها .. وفيها وراء المسجد : الدعوة إلى غير الله ، وهو الإنسان الفرد الحاكم أو الشعب الكادح .. فيها الدعوة إلى الوثنية والشرك بالله . يستباح فيها — شتما وسبا — اسم الله ودين الله ، بينما يخشى فيها من الإنسان وإرهابه وطاغوته . واختفى فيها الإيمان والكفر ، وعلا فيها النفاق والملأة .. والدعوة إلى الانطلاق والجلس تمجد ، والدعوة إلى السلوك الانسانى ترد .. ويعاب على الغنى غناه ، ويثنى على الفقير لفقره ، يؤخذ

---

(١) كبلاد القوقاز التى تدخل الآن ضمن الاتحاد السوفييتى ، وكتلك البلاد الأخرى التى تخضع للصين الشعبية كالبانيا .

على صاحب التفكير من الناس أنه مفكر ، ويمتدح الأمى لأميته وتخلفه . م
ويقضى بعدم حياء المرأة ، وبصياحها فى طلب الرجل ، عن طريق : تبرجها ،
ومسلكها ، وتفكيرها . وتدفع : العفة ، والمحافظة على العرض ، وحرمة الأسرة
والنسب ، بالرجعية والتخلف .. وتباح السرقة من ثرى ، وإعطاء الرشوة لحاكم ،
واقتطاع الحاكم لنفسه من بيت المال ما يشاء ومتى شاء .. ويفرق بين المواطنين
فى الاعتبار ، ويباح لواحد ما يحرم على الآخر . وكل هذا ، وذاك : باسم العدالة
الاجتماعية ، وتحرير المرأة ، ومنح الاستقلال المالى والسياسى .. ويتوزع الولاء
على أرض المجتمع الإسلامى المعاصر بين : الله ، لعابد قليل الحظ والغناء فى الدنيا ،
والإنسان الحاكم ، لوصولى منافق ، والبلد أجنبى ، وأيديولوجية إلحادية ..
ويعلو فى البلد الإسلامى الواحد على صوت مؤذن يوحد الله ، صوت المذياع يندد
بالدين ويستهجن رسالته . وفى الوقت الذى ينقل فيه المذياع تلاوة بعض آيات القرآن
الكريم ، ينقل ما ينافى هداية الله ، ويرمى بها فى أحضان الأمس العميق حتى
لا يراها ضياء الغد المرتقب ، إن كان هناك أمل فى ضياء يطلع على مجتمع إسلامى !

وإن الدعوة إلى غير الله ، والرجوع إلى الشعب لمعرفة ما يرى وما يريد لا تنم
عن احترام الشعب ، بقدر ما تنم عن الرغبة فى السيطرة عليه ، وفى الاستمتاع بجاه
الحكم باسمه . إذ أن مصلحة الشعب الحقيقية هى فى ألا يحكم بالهوى .. مصلحته
فى أن يحكم بما أنزل الله . وإن كتاب الله للإنسان فى أى مستوى .. فى مستوى
الشعب والعامة ، أو فى مستوى الأغنياء والأثرياء ، أو فى مستوى المفكرين
والخواص . والحكم به ينتهى حتما إلى التوازن بين كل هؤلاء ، ولا حاجة عندئذ
إلى الشقاق والخصومة والصراع .

يجب أن يكف المستغلون للشعب باسم الشعب عن الحكم بأهوائهم ويعودوا إلى
كتاب الله ، إن أرادوا إصلاحا ومصلحة : للعامة ، والخاصة على السواء ، وآثروها
على شهواتهم فى السلطة والجاه . والقرآن إذ يقول للمؤمنين يؤكد لهم أنهم
سيواجهون المحن والأحداث المزعزعة :

«لتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ، وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ ، وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُور » . .

لم يقل لهم على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم وحده . وإنما يقوله للمؤمنين فى كل عهد وفى كل مكان . فإيذاء أهل الكتاب الصليبيين للمسلمين ، عن طريق العلمانية منذ القرن التاسع عشر ؛ وإيذاء المشركين الماركسيين الإلحاديين للمسلمين أيضاً ، منذ القرن العشرين .. لا يقل فى أثره على الإيمان ، وعلى تمسك المؤمنين بدينهم عن إيذاء : اليهود ، والنصارى ، للمؤمنين فى شبه الجزيرة العربية، ولا عن إيذاء مشركى مكة — وبالأخص مشركى قريش لهم — على عهد صاحب الرسالة، صلوات الله عليه وسلامه . والصبر والتقوى آنئذ لم يزالا من عزم الأمور فى دفع الأذى والضرر ، بسبب : المحن فى المال ، والأنفس ، والإيمان .

هذه المجتمعات لا ندخل فى إطار الحديث عن الحياة الإسلامية ، إلا يوم تستأنف الإيمان بالإسلام وتستوحى كتاب الله وسنة رسوله فيما يعود عليها بالخير ، ويحل قضاياها ومشاكلها الداخلية والخارجية ، بما لا يسىء إلى أحد ، وبما يضمن الاطمئنان للجميع .

الوحدة مظهر حضاري :

ووحدة المجتمع على الالتقاء على مثل معينة ، هى مثل إنسانية خالصة ، تدل إذن : على حضارة المجتمع وتقديم أفراده فى المستوى الإنسانى . إذ أقل ما يقال عنها الآن : إن الوعى الجماعى ارتفع فوق الذات وأنانيتها ، واستطاع أن يشير إلى قدر مشترك بين ذوات الأفراد من القيم ، ترتبط بعضها ببعض فى تحقيق رسالتها . واختفت وراء هذا الوعى : الروح القبلية ، وكذا : الروح الشعوبية العنصرية ، وفروق اللغة ، واللون ، والمكان ، كما اختفت : أنانية الذات ، أو ضعفت حدتها .

والبدائية أو الجاهلية هي التي تعتمد على العوامل ذات المحدودية في الاشتراك بين الأفراد : نهي تقف أولا : عند دائرة الذات ، أو دائرة «أنا» . فإذا تطورت هذه البدائية انتقلت من الذات .. ووقفت عند الأسرة ثم إذا تطورت أكثر انتقلت من الأسرة .. إلى القبيلة ، ثم من القبيلة .. إلى العنصر ، ثم من العنصر .. إلى : الاون، أو المكان الجغرافي . فإذا طمست هذه البدائية أو الجاهلية وفنيت ، ووجدت الحضارة بدلا منها ، وقفت هذه الحضارة على عتبة : الإنسانية ، بعد أن تلغى اعتبار تلك العوامل ، ذات المحدودية في الاشتراك على اختلاف بينها . وتطور الحضارة عندئذ هو ، في : مدى تقدمها في دائرة الإنسانية وتحقيق أهدافها .

والاشتراكية الماركسية اللينينية إذ تدعو إلى إلغاء القومية والعنصرية ، وإلى الاتجاه إلى « العالمية » و « السلام العالمي » : تحمل سمة الحضارة . ولكنها تكشف عن « جاهليتها » غداة تدعو إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة ، أو ديكتاتورية الحزب الشيوعي بالوصاية على الطبقة العاملة ، وتنادي بالصراع الدموي ضد الرأسمالية ، وتقيم دولة بوليسية تعتمد على : حكم البوليس السري ، والرقابة على وسائل الإعلام ، وتجعل من البورجوازيين طبقة ثانية .. أو حتى لم تدخل بعد ، دعوتها إلى الديكتاتورية ، وندائها بالصراع الدموي دائرة الإنسانية ، وتقيس الأفضلية بين الأفراد على أساس من القيم الإنسانية وحدها ، وليس على أساس المهنة والحرفة ، أو على أساس الغنى والفقير ، أو الأمية والثقافة . فجانب من دعوتها له طابع حضاري ، وجانب آخر له طابع الجاهلية . وهي بذلك في مفترق الطرق .

ونظام العالم الحر — في مواجهة العالم الماركسي اللينيني — يوم يحتمل الحرية السياسية في مجتمعاته ، ويتمسك بالحرية الفردية : يكون له طابع حضاري من غير شك . ولكن يوم : يتمسك بالعنصرية أو يبعثها من جديد ، ويوم يستسيغ الاستعمار أو يبيح لنفسه استغلال الضعيف في الشعوب الأخرى لحاجة هذا الضعيف إليه .. يوم يسلك المسلك القبلي ، أو الشعوبي ؛ أو الأناني . بذلك يجد نفسه كذلك في مرحلة ما بين الجاهلية والحضارة .

ولاهتمام الإسلام بهذا الجانب الحضارى — لأنه فى الواقع يمثل وجه الإنسانية — عنى القرآن بتوجيه الدعوة إلى : النصارى ، واليهود من أهل الكتاب .. إلى العودة الى عبادة الله وحده ، التى هى أصل الوحدة فى ذات الإنسان ، وفى المجتمع . وهى ليست دعوة جديدة بالنسبة إليهم ، وإنما هى تذكير لما فى كتاب الله السابق ، قام حجابا دونها : ما شاع فيهم من تستر عليها ، وترويج الاعتقاد بينهم بمشاركة الله للإنسان فى إنجاب الأولاد ، وفى خصائص الانسان .

« وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ : أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلا أَنَا فَاعْبُدُونِ »[1] ويقول القرآن فى ندائه : « يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا، يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيراً مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ، وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ ، قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللهِ : نُورٌ وكِتَابٌ مُبِينٌ يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ ، وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، قُلْ : فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللهِ شَيْئاً إِنْ أَرَادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ بْنَ مَرْيَمَ ، وَأُمَّهُ ، وَمَنْ فِي الأَرْضِ جَمِيعاً ؟ وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ، يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ . وَقَالَتِ الْيَهُودُ والنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وَأَحِبَّاؤُهُ ، قُلْ : فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ ؟ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ ، وَلِلهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ . يَا أَهْلَ الْكِتَابِ ! قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ

---

(١) الأنبياء : ٢٥ .

لَكُمْ عَلَى فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ ، أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ، فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ، وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ »[1] ويقول تعالى: «لقد كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا : إِنَّ اللهَ هُوَ الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ ، وَقَالَ الْمَسِيحُ : يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ ، إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ ، وَمَأْوَاهُ النَّارُ ، وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ. لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ ، وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ ، وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ . أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ ؟ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ . مَا الْمَسِيحُ بْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ ، قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ ، انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ، ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ . قُلْ : أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ؟ وَاللهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . قُلْ : يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ ، وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ ، وَأَضَلُّوا كَثِيرًا ، وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ »[2] ..

فهذه الآيات في الوقت الذي تبدد فيه صورة الشرك بالله ، وتنصح أهل الكتاب السابقين ، من : النصارى ، واليهود بالتزام عقيدة الوحدة في الألوهية ، وبالرجوع بذلك إلى سبيل السلام . . . تشير إلى أن هذا النداء لهم يستهدف إقامة الحجة عليهم ، بعد أن مضت فترة من الزمان على رسلهم بالكتاب ، لعب فيها الإنسان دوره في التحريف والتلبيس لما نزل من الله . حتى إذا حوسبوا على غيهم وظلمهم

---

(١) المائدة : ١٥ ـ ١٨ .
(٢) المائدة : ٧٢ ـ ٧٧ .

لأنفسهم لم يستطيعوا أن يقولوا : لم يأتنا بعد رسلنا وتيام بعض منا بالتحريف في كتاب الله : من ينير لنا الطريق المستقيم ؛ ويبشرنا برضوان الله ، إن اتبعنا هدايته ، وينذرنا بعقابه لو انجذبنا إلى دعوه الشيطان .

وقد جعل القرآن الكريم هنا طريق الوحدة في الألوهية سبيل السلام . لأنه السبيل الذى يصل بالجميع إلى غاية واحدة ، ويحقق هدفاً يعود بالخير على الإنسانية كلها . إذ يرفع من مجتمعاتها الخلاف ، والخصومة ، والحرب والقتال . ولا شك أن كل ما يصل بالإنسان إلى السلام ، هو : عامل حضارى يسهم بالشيء الكثير في الحضارة البشرية . وهذه الدعوة إلى أهل الكتاب دعوة لا تقبل المساومة عليها منهم . لأنها دعوة إلى مبدأ ، وإلى حضارة ، وإلى إنسانية . وليس من أهداف القرآن — وهو صاحب هذه الدعوة الأخيرة — أن يقبل تجميع البشر على مساومات في شأن ما يدعو إليه . لأنه لا يكون صادقاً عندئذ في دعوته ، ويعبر عنها تعبيراً واضحا . ولهذا جاء طلبه إلى الرسول صلى الله عليه وسلم — عندما ترفض الدعوة من جانب أهل الكتاب — أن يستمر في اتباع ما أنزل الله إليه ، دون اهتمام لاختلافهم معه ورفضهم لدعوته . فالوحدة الشاملة لا تقع إطلاقاً لعدة أسباب :

منها : قضية الابتلاء والاختيار في الإيمان ، وكما يكون الابتلاء والاختيار فيه بالأزمات ، يكون بالنعم كذلك .

ومنها : الصراع بين الخير والشر ، الذى هو أساس الحياة الدنيا في الآخرة . وهذا يحتم أن يكون هناك : مؤمنون صرحاء في الإيمان ، وينافقون فيه ، كما يكون هناك : كافرون وفاسقون معارضون معارضة واضحة ، ومنافقون في كفرهم وفسقهم .

وكما طلب إلى الرسول عدم الاهتمام باختلاف أهل الكتاب معه ، وبقائهم على معارضته ، بعد أن ناداهم إلى طرح الشرك والعودة إلى وحدة الألوهية . . . طلب إليه كذلك : أن يركن في سلوكه وفي فصله وحكمه بين المؤمنين ، أو بين أهل

الكتاب ، أو بين الناس جميعا : إلى ما أنزل الله — مما جاء به ، أو جاءت به الرسل السابقة — ولا يتبع شيئا آخر سواه ولو فى جزئية من الجزئيات . إذ ما سوى الكتاب ، هو : الهوى ، والهوى هو حكم الجاهلية ، وحكم الطغاة الأنانيين :

« وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ ، لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً ، وَلَكِنْ لِيَبْلُوَكُمْ فِيمَا آتَاكُمْ ، فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ، إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ . وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ ، وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللهُ إِلَيْكَ . فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ، وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ . أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ؟ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ »[1] .

وأبرزت هذه الآيات العوامل القوية التى تشد أزر الرسول صلى الله عليه وسلم فى موقفه من الحكم بكتاب الله وحده بين أى من الناس يأتى إليه للفصل والقضاء فى ما يكون من نزاع أو خلاف :

أولا : أن ما فى القرآن من توجيه ، هو : تصديق للوحى السابق المنزل على الرسل السابقين ، وفى الوقت نفسه هو : اختبار يحتكم إليه لإبعاد ما عساه أن يكون قد ألحق أو يشرح به مما لا يكون وحيا لله وبهذا يكون القرآن هو العمدة والأساس الذى يجب أن يعود إليه كل أمر منذ الآن .

---

(١) المائدة : ٤٨ — ٥٠

ثانيا : إن اختلاف بعض الناس ومعارضتهم للرسالة الإلهية لا يدل ، على : أنهم على حق فيما ذهبوا إليه . ولكن لأن طبيعة هذا الوجود الإنسانى ، وطبيعة الحياة الدنيا تفرضان المعارضة ، كما تفرضان أن البشر ليسوا متساوين جميعاً فى المصير وخاتمة الأمر . فأكثر الناس من الفاسقين الذين سينالهم حتما جزاء فسقهم .

وثالثاً : أن هذه الرسالة نعمة من الله ، والذين آمنوا بها هم من أنعم الله عليهم . والنعم يقتضى بها لذاتها ، وقد يستهدف بها مع ذلك ، التمييز : أى من المنعم عليهم قد سبق إلى الخير ، وتمسك به ، ووقف إلى جانبه ؟ . فالرسالة نعمة ، وابتلاء فى الوقت نفسه . ومقتضى الابتلاء بأمر ما : الصبر والثبات ، وعدم الانجذاب فى حالة النعمة إلى أية فتنة أو إغراء قد تؤدى إليها ، أو عدم الضعف والهوان عند الكوارث ، لما يثير الأسى فى النفوس والتضييق عليها فى الحياة .

obeikandl.com

الفصل الثاني

تحديات المجتمع الحضاري

obeikandl.com

obeikandl.com

إن قيادة المجتمع الحضارى لابد أن تعنى بما يضمن للمجتمع مستواه الحضارى، وحفاظه على القيم الإنسانية التى جعلته متميزاً : عن مجتمع الجاهلية . . كما يجب أن تعنى كذلك بالمجتمع وشئون أفراده ، الذين هم أعضاؤه ، بعد أن أسهموا فى إقامته . وهم أولئكم الذين يؤمنون بقيمه وأهدافه . وربما تكون عناية القيادة فى المجتمع الحضارى بالقيم الإنسانية الحضارية فيه أشد وأقوى ، من رعايتها لشئون أعضائه . ذلك: لأنه لم يتميز عن مجتمع الجاهلية إلا ببلوغه لهذا المستوى الإنسانى ، وإدراكه للقيم الإنسانية التى بتحقيقها كان له الوصف : بالحضارة ، دون الجاهلية . أما رعاية شئون أفراد المجتمع فهى قدر مشترك بين المجتمعات التى تقوم وتنتهى ، وإن اختلفت فى مدى نجاحها ، وفى أمد الوقت الذى بقى فيه المجتمع قائما .

والمجتمع الحضارى ، يوصف بأنه حضارى ، وهو مجتمع إنسانى : يؤكد المعانى والقيم الإنسانية ، على الأقل : تأكيداً مساوياً للعوامل المادية ، إن لم يفضلها وكلما كان تأكيده للمعانى والقيم الإنسانية أكثر وأقوى ، كلما كان أدخل فى المستوى الحضارى والإنسانى معا . وعلى عكس المجتمع الحضارى : فإن مجتمع الجاهلية يؤكد العوامل والمظاهر المادية : تأكيداً ينفى إدراكه أو اعترافه بالقيم الإنسانية ، أن إدركها أو ألمح إلى أنه يعترف بها . أو تأكيدا يطغى على كل جانب من جوانب الحياة فيه ، بحيث لا يبدو : أن هناك ثغرة ينفذ منها ما يشير إلى وجود قيم أخرى — وهى القيم الإنسانية — بجانب تقدير عوارض المادة فى الوجود الإنسانى . فهو يؤكد المال والثروة . . ويؤكد الجاه والشرف . . ويؤكد الزينة ، ومظاهر الأبهة والعظمة والقوة المادية . . وتبعا لتأكيده هذه الجوانب ، فهو يحرص على بقائها والاستمتاع بها ، وينكر فى غير تردد : أنها ستنتهى يوما ما ، أو سيتغير أمرها ووضعها لى وضع قد يختلف عن وضعها الحالى. كما ينكر أمر المساواة فى البشرية ، بين . من له جانب أو عدة جوانب من هذه

الظاهر المادية ، ومن لا يملك أيا منها على الإطلاق . . . يفكر المساواة بين الغنى والفقير ، وصاحب الجاه والشرف ومن ليس له جاه وشرف ، وبين من يتبختر فى حلى وزينة ومن يكون من عامة الناس لا يملك سوى ما يستر بدنه أو سوأته . ومجتمع الجاهلية تبعا لتقييمه عوارض المادة وحدها : يضفى على ما شأنه أصلا أن يكون فى مجال التفكير والتصور ، أو الاعتقاد ، مظهراً مادياً يدفع به إلى محيط المادة ، بدلا من محيطه الأصيل وهو الفكر أو القلب : فيجسم ما يؤوله ويعتقد فيه أنه : ربه ، وينقل احترامه وعبادته وتقديسه ممن له صفات الاحترام والتقديس فى الكون كله . . إلى ما لا يضر ولا ينفع ، من : صنم أصم وأبكم ، أو من إنسان زائل يستر ضعفه بطغيانه على من لا يملك أسباب القوة فى مواجهته ، أو بمهارة اخذت لب من يعتقد فيه ويقدسه . وبما أن الإله أصبح مجسما أو ماديا ، فالتعدد فى الألوهية أمر حتمى عندئذ . لأن المجسم أو المادى الذى يحترم ويتدس من أفراد ، قد يرى أفراد آخرون غيرهم : أنه لا يستحق الاحترام والتقديس ، ومن ثم : ينقلون احترامهم إلى شىء مجسم أو مادى آخر . . . وهكذا . فشأن المجسم والمادى : أنه عرضة للكشف والاختبار ، وبالتالى هو عرضة لتغيير التقدير والتقييم . والشرك فى الألوهية إذن ضرورة اجتماعية فى مجتمع الجاهلية . وليس الشرك إلا الوقوف بالاحترام والتقديس عند أفراد معينين ، من : الإنسان ، أو غير الإنسان ، يحسب اليهم التأثير بالنفع أو الإيذاء .

. . وكذلك تبعا لتقييم مجتمع الجاهلية العوامل والمظاهر المادية وحدها ، فإنه يكون حريصا على العادات والتقاليد التى تعبر عن وضعه القائم . فالحرص على العادات والتقاليد ينطوى على الثبات والاستمرار فى الاستمتاع بالوضع القائم . ومن أجل ذلك لا يصدق إطلاقاً : أن أى مجتمع مادى يجعل القيم الإنسانية ثانوية ؛ أو يلغيها كلية سواء فى القديم أو فى الوقت المعاصر فى قرننا العشرين — لا يحرص كل الحرص على عدم تغيير الوضع الاجتماعى القائم الذى يتيح الاستمتاع لمن يستمتعون به . . لا يصدق مطلقاً : أن المجتمع المادى فى القديم ؛ أو فى

المعاصر ؛ ليس مجتمع تقاليد فى مجال المقاييس والأساليب التى يقدر بها ويقيم الأوضاع عن طريقها . وإن دعا إلى التطور أو التقدم فى مجال المادة وإنتاجها وتصنيعها ، ولكن ليس فى مصادر التقيم للحياة الإنسانية التى قام عليها المجتمع وارتبط بناؤه بها :

• فهو مجتمع مادى فيما يقيمه ، يتجه إلى مظاهر القوة والعظمة المادية ،

• وهو مجتمع يؤمن بالوجود المادى وحده ، وبأبدية هذا الوجود — لا يعقبه وجود آخر أخروى ،

• وهو مجتمع وثنى فيما يعتقد ، مشرك فيما يقدس ،

• وهو مجتمع يحرص على التقاليد والأسباب التى تضمن بقاء لوضع القائم فيه .

والمجتمع الحضارى فيما يستهدفه من قيم إنسانيه لابد أن يصطدم مع المجتمع الجاهلى . إذا أراد البقاء فى ظل هذه القيم ، والعمل على إنمائها ، والتقيد بها فى السلوك والتصرف .

كما أن المجتمع الجاهلى لابد أن يتحدى المجتمع الحضارى ، فيما يدعو إليه من قيم . لأن نجاح الدعوة إلى القيم الإنسانية معناه : انتهاء مجتمع الجاهلية والقضاء عليه . فهو يتحدى عوامل الفناء ، ويتمسك بالبقاء .

وفى اللقاء الأول بين المجتمعين تستأثر الدعوة إلى القيم من جانب وتحدى هذه الدعوة من جانب آخر ، بكل نشاط المجتمعين ، حتى ليخيل إلى الملاحظ للصراع بين الطرفين : أن الأمر فى المجتمع الحضارى لا يعدو أن يكون أمر دعوة إلى القيم والحضارة الإنسانية ، وأن الأمر فى المجتمع الجاهلى لا يتجاوز كذلك أن يكون أمر تحد لهذه الدعوة والتربص بها والإيقاع بمن يعمل من أجلها . أما شئون أفراد المجتمع فتكاد تكون حينئذ فى المرتبة الثانية ، أو تبدو : أنها فى زاوية النسيان . ومن أجل ذلك يخطىء كثيرون من المؤرخين إذا اعتبر مجتمع الحضارة عند تأسيسه وقيامه مجتمع دعوة إلى القيم الإنسانية فقط ، ولم يعتبر ، كذلك مجتمع

سياسة ودولة للأفراد من أعضائه المؤمنين بقيمه .. هو مجتمع سياسة ودولة ، كما هو مجتمع دعوة وقيم : ولكن طابع الصراع بين الدعوة : هو : الذى يغلب على الملاحظين ، عندما يقصرون حكمهم على المجتمع الحضارى بأنه مجتمع دعوة فحسب.

وقيادة المجتمع الإسلامى — وهو مجتمع إنسانى حضارى — كما يصوره القرآن الكريم كانت قيادة دعوة لقيم عليا ، نحو المستوى الإنسانى الرفيع ، كما كانت قيادة لسياسة دولة ، هى دولة المؤمنين بالدعوة للقيم العليا . وهذان الجانبان يتمثلان فى حياة الرسول صلى الله عليه وسلم مع الدعوة إلى الإسلام مرة ، ومع المؤمنين وتنظيم مجتمعهم وعلاقات بعضهم ببعض مرة أخرى . فكان عليه السلام يرعى الدعوة ، وكان فى اوقت نفسه يوجه سياسة الدولة فى عهده ، حسبما كان ينزل من وحى فى كتاب الله . وفى رعايته صلى الله عليه وسلم للدعوة إلى الإسلام ، كما يعرض القرآن ملامح هذه الرعاية ، يمكن للمتتبع لآيات الله فى كتابه يستخلص هذه الملامح : مايجب أن يتوفر لشخص الداعى فى مواجهة التحدى . ومايجب أن يتوفر لشخص الداعى فى مواجهة تحدى الدعوة يمكن أن يقف المتتبع للآيات القرآنية — التى نزلت فى وصف الرسول ، وفيما طلب منه أداؤه ، وفيما حكى عن معارضة المعارضين لدعوته ومعارضة الآخرين فى مجتمعات أخرى لدعوة الرسل السابقة — على العناصر التى تشكل الإطار السليم لنجاح الدعوة فى شخص الداعى وهى التى توفرت للرسول . ويجب أن تتوفر لكل داعية بعده يقود مجتمعا إنسانيا ذا مستوى حضارى ، ويواجه فى قيادته للدعوة تحديات المجتمع المادى أو المجتمع المادى أو المجتمع غير الحضارى ، وهو مجتمع الجاهلية ، فما كان للرسول ، هو : مثل ونموذج للدعوة الإنسانية الرفيعة ، التى ستتكرر عندما يشتد ظلام المادية والجاهلية ، ويزداد الظلم والطغيان ويضحى بالمبادىء فى سبيل الأهواء :[1]

***

(١) ان نص القرآن الكريم فى قوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » بصيغة

• وأول هذه العناصر : وقوف صاحب الدعوة على الأسباب والعوامل التى تحفز على المعارضة وتحدى الدعوة ، إن كانت تلك الأسباب والعوامل موضوعية أى تتصل بموضوع الدعوة ومبادئها والقيم التى تدعو إليها . أو كانت تنبثق عن التمسك بالوضع السابق للمجتمع البشرى قبل الدعوة ، مما يجعل المعارضة آنئذ ذات صلة بالرغبات والأهواء ، وليس لها مساس بالقيم والمبادىء الإنسانية التى تتجه إليها الدعوة عندما يباشرها صاحب الأمر فيها . وبالرجوع إلى كثير من الآيات القرآنية فى هذا الشأن نجد أن المعارضة للدعوة كانت مزدوجة : شخصية ترتبط بشخص الرسول عليه السلام ، ووضعه الاجتماعى فى بيئته .. وأخرى التى تتصل بوضع المجتمع السابق على الدعوة ، الذى يتضح مما سبق فى هذه الآيات لتبرير عدم تغييره ، عن طريق الدعوة الجديدة : أنه مجتمع مادى لا يعطى للقيم الإنسانية الخالصة أدنى عناية ، ولذا فهو مجتمع جاهلية أو غير ذى حضارة : فوجه للرسول عليه السلام من المعارضين ، أو الكافرين : أنه واحد من الناس يدعوهم إلى الايمان بدعوته ، ولم يكن غير بشر ، كما لم يكن من مجتمع آخر غير المجتمع الذى يدعو فيه .. ثم أنه من عامة الناس وآحادهم ، فلم يكن متميزا فيهم بثروة ، أو ترف أو جاه ، ومن ذوى الشأن الرفيع فيهم .. وإن الذين يتبعونه من أرذل الناس وغوغائهم ممن لا يحفل بهم أحد ، وممن يكونون عادة الطاقة الضعيفة والدنيا فى المجتمع التى تعمل فى خدمة غيرها . كما وجهوا إلى دعوته : أنها ترفض ما كان عليه الآباء من اعتقاد الشرك والوثنية ، وتدعو إلى وحدة الألوهية ، وأنها تجعل البعث بعد الموت جزءا من الإيمان كله . أما الأمر الذى وجه إلى القرآن كمصدر الدعوة الجديدة فهو أنه نزل منجما ، ولم ينزل دفعة واحدة .

الطلب والأمر يحتم : أن البشرية بعد رسالة الرسول عليه السلام ستكون فى حاجة ماسة الى الدعوة من جديد ، أما لبقاء تماسك المؤمنين ، واما الى اعادة بنائه . ذلك أن البشرية يستحيل أن تبقى على وضع واحد هو وضع الايمان والقوة . اذ لابد للايمان أن يتعرض لهزات تنال منه ، ولابد للقوة كذلك أن يطرأ عليها ضعف ، يعود بعدها الى وضع القوة وتنتهى هذه مرة أخرى الى وضع الضعف ... وهكذا .

نقرأ قوله تعالى : « صَ . وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ ، بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ . كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ (أي مجتمع) ، فَنَادَوا وَلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ . وَعَجِبُوا : أَنْ جَاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ ، وَقَالَ الْكَافِرُونَ : هَذَا سَاحِرٌ كَذَّابٌ . أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا ؟ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ . وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ : أَنِ امْشُوا ، وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ ، إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ . مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ ، إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ . أَأُنْزِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ (أي القرآن) مِنْ بَيْنِنَا ؟ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْ ذِكْرِي ، بَلْ لَمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ »(١)

فهذه الآيات تذكر : أن المعارضين للرسول عليه السلام اعترضوا على شخصه بأنه واحد من المجتمع نفسه : « وعجبوا أن جاءهم منذر منهم » . وهذه ظاهرة مألوفة ، وهي أن كثيرا من الناس في مجتمع ما يرضون من زعامة واحد منهم لم يتميز بينهم : بنسب ، أو شرف ، أو ثراء ، أو جاه فهو — حسب اعتقادهم — ليس له فضل عليهم - والمساوى في اعتبار الكثير لا يرقى بسهولة إلى أن يتزعمهم ويقودهم ، ويجد صعوبات عديدة في طريق هذه الزعامة يرجع معظمها الى : « الحقد » عليه ، والرغبة في تحطيمه ليعود مثلهم لا يفترق عنهم ، في شيء ما ورفضهم لزعامة الإنسان العادي وتميز عليهم بالتوجيه لمجتمع إنساني جديد . وتعميمهم لو كان من عليه القوم ومن المتمتعين بينهم بالوجاهة والعظمة ، تذكره آيات أخرى من القرآن الكريم .

« وَلَمَّا جَاءَهُمْ (أي هؤلاء الكافرين) الْحَقُّ (القرآن) ، قَالُوا هَذَا سِحْرٌ ، وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ . وقالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ (مكة والطائف — أو فارس والروم) عَظِيمٍ ؟ . أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَةَ رَبِّكَ ؟ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَرَفَعْنَا

(١) ص : ١ ـ ٨ .

بَعْضُهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ، لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا (يكلفه العمل مقابل أجر) وَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ . وَلَوْلاَ أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً (أى فى الكفر) لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ ، وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ . ولبيوتهم أبْوَاباً وَسُرُراً عَلَيْهَا يَتَّكِئُونَ . وَزُخْرُفاً ، وَإِنْ كُلُّ ذَلِكَ لَمَّا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ، وَالآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ للمتقين »[1] . . فتعرض الآيات ما كان يتمناه هؤلاء الكافرون ، من تنزيل القرآن على عظيم من العظماء ، وليس على آحاد الناس . ولكن أهم كانوا جادين فى هذا التمنى ، أم أنه فقط عنصر من عناصر الجدل ؟ يوارون وراءه كفرهم ومعارضتهم للقرآن لذاته ، لأنه كان سينقلهم إلى مجتمع آخر هو مجتمع الإنسانية وليس مجتمع التهالك على المادية .

كما نعرض رد القرآن على تمنيهم هذا : بأنه ليس من وظيفتهم : إعطاء الرسالة ومنحها لمن يشاءون . فهم ليسوا أصحاب شأن فى العطاءات المادية ، فكيف يكونون من ذوى الشأن فى تحديد الرسول ، والرسالة والرسول أمران فوق بال بالنسبة للبشرية كلها ؟ . فهما ليسا : كالمال ، ومن يعطاه . فالمال قيمته قيمة ثانوية . ولولا خشية الإغراء وشدة الافتتان به وتحول الناس جميعا إلى الكفر ليعطاه الكافر وحده ويغدق عليه منه : « لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبوابا وسررا عليها يتكئون . وزخرفا . . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا . والآخرة عند ربك للمتقين » .

فتحدى القرآن بسبب من أنزلت عليه الرسالة ، وأنه من الآحاد الكثيرة وليس من العظماء ، يدل على أن المتحدين يخشون من التغيير فى المجتمع على وضعهم المادى ، قبل أن يخشوا من التبعية فى الإيمان لأحد عامة الناس لما كان ، طالما كان ما جاء

---

(١) الزخرف : ٣٠ ـ ٣٥ .

به حق يخدم قضية الإنسانية ويؤثرها على وضع فرق خاص من الناس ، آلت إليهم السيادة الشرقية والمالية فى المجتمع عن طريق التوارث ، أو الاغتصاب ، أو القرصنة . إنه الاتجاه المادى وسيطرته وإغراؤه .

وكل ما وجه إلى الرسول عليه السلام ، سواء لشخصه أو لرسالته ، أثر من آثار المادية ، وتقدير المادة والمبالغة فى تقديرها . فالمجتمع المادى لا يحفل بغير ذى المال والترف والجاه وصاحب الخدم والعبيد . وهو كذلك يرفض أن يتقوض ويأتى على أنقاضه مجتمع جديد آخر مغاير له ، أو حياة أخرى بديلة عنه . كما يرفض ألا يكون لبعض الأشخاص قداسة واحترام العبادة ، وهم أصحاب النفوذ والسلطة فى السيطرة والتوجيه فى المجتمع . وإذن عدم الاعتراف بزعامة واحدة من عامة الناس ، من ظواهر المجتمع المادى سواء فيما مضى ، أو فيما هو كائن أو يكون .

وتخريب الماركسية اللينينية للرأسمالية فى العصر الحاضر لا يرجع إلى منع استغلال رأس المال ، بقدر ما يعود إلى الحقد والميل إلى زوال نعمة المال[1] . ولذا فالتطبيق العملى لهذا المذهب الاشتراكى فى نصف قرن الآن ليس له أثر إلا إفقار صاحب المال ، وزيادة حرمان الفقير .

كما تذكر الآيات السابقة اعتراضهم على دعوة الرسول عليه السلام إلى الوحدة بأنه أمر منكر : « أجعل الآلهة إلها واحدا ؟ إن هذا لشىء عجاب » . ومن أجل هذا وذاك وصفوه بأنه « ساحر (أى ماهر) كذاب » ووصفوا دعوته بأنها « أمر لم يسمع به من قبل ، وأنها محض اختلاق : « ما سمعنا بهذا فى الملة

---

(١) والا : فاستغلال « رأس مال الدولة » فى النظام الاشتراكى أشنع من استغلال رأسمال الأفراد فى النظم الحر . لأن الدولة فى النظام الاشتراكى صاحبة رأس مال ، وربة عمل ، وهى حكم فى خصومات العمال من أجل العمل ، وكذلك سلطة منفذة لما تحكم به . بينما الدولة فى النظام الرأسمالى : تقف بحكم القانون بين الفريقين : رب العمل والعامل ، وصاحب رأس المال والمستهلك . فهى للتعادل بين الطرفين وليست طرفا فى نزاع .

الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق » . ثم علقوا قيامه عليه السلام بهذه الدعوة المختلقة في زعمهم ، بالرغبة في التزاعم عليهم . ولذا يجب عليهم الحرص على معتقدهم من الشرك والوثنية . « وانطلق الملأ منهم (أي مجموعة منهم منادية) . أن امشوا (سيروا واستمروا) واصبروا على آلهتكم » في تقديسها والوقوف عندها وعدم الانتقال (أي بالأمان منها إلى الدعوة الجديدة المفرضة ! .

ونقرأ كذلك قول القرآن الكريم : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا . الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ ، وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا . وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ، وَلَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ، وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا ، وَلَا حَيَاةً ، وَلَا نُشُورًا . وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : إِنْ هَذَا إِلَّا إِفْكٌ افْتَرَاهُ ، وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ ، فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا . وَقَالُوا : أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا ، فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا . قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّهُ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا . وَقَالُوا : مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ، لَوْلَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا . أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنْزٌ ، أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ؟ وَقَالَ الظَّالِمُونَ : إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا »[1].

فنجد . أن هذه الآيات ، رغم أنها تختلف في أسلوب العرض عن مجموع الآيات السابقة[2] ، فإنها تعيد اعتراض الكافرين والمعارضين على موضوع الدعوة

---

(١) الفرقان : ١ ـ ٨ .

فى أنها توجه النظر إلى عبادة إله واحد ، وإلغاء عبادة ماسواه مما يتمثل فى أصنام أو فى بشر : « وقال الذين كفروا . إن هذا[1] إلا إفك افتراه ، وأعانه عليه قوم آخرون » .. أى أنها تحكى مايعترضون عليه من أبطال الشرك ، والدعوة إلى التوحيد فى الألوهية . وتزيد فتجعل للرسول عليه السلام أعواناساعدوه بقصصهم أساطير الأولين التى كتبها وكانت تملى عليه : « وقالوا : أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا » . ومازالت دعوى المعاونة تتردد اليوم باسم منهج البحث العلمى لدى المستشرقين الذين تركوا منبر الكنيسة ليقفوا فى الجامعة ليدعوا : أن القرآن من صنع محمد ، لفقه من أقوال اليهود والنصارى !! .

كما تعيد اعتراضهم على شخص الرسول ، بأنه إنسان عادى : يأكل الطعام كما يأكل الآخرون ، ويمشى فى الأسواق ، كما يمشى الآخرون . فهو لايتميز إطلاقا عنهم : « مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق؟ » . ولو أنه كان يتميز عنهم بأن يصحبه ملك من الملائكة فى رسالته ! أو يحابى بكنز من المال ، أو تكون له جنة يأكل منها لكان الأمر موضع نظر للتصديق والإيمان : « لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها؟ » ولكن أما والأمر ليس على هذا النحو فهو بدعوته مسحور لايعى ولايدرك حقيقة الوضع : « وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلا مسحورا » .

واختلاف هذه المجموعة من الآيات عن المجموعة التى قبلها فى عرض سببى بالشخص الرسول عليه السلام وموضوع دعوته هو : أن هذه المجموعة الثانية ابتدأت بعرض الدعوة الإسلامية فى نفى الشرك واستقلال الله سبحانه وتعالى وبالخلق وحده . وأعقبت ذلك بما يعترض به المعارضون ، مع تفنيدما يعترضون به

---

(٣) اشارة الى ما ورد فى هذه الآيات من قبل : « واتخذوا من دونه الهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضرا ولا نفعا ، ولا يملكون موتا ، ولا حياة ، ولا نشورا » .

« واتخذوا من دونه آلهة لايخلقون شيئا وهم يخلقون ، ولايملكون لأنفسهم ضرا ولانفعا ، ولايملكون موتا ، ولاحياة ، ولانشورا (أى بعثا للأموات إلى حياة أخرى) ... إذ لاشك فى أن عبادة المخلوق الذى لايملك قدرة على نفع ، أو ضر ، أو حياة . أو موت ، مزرية بالعابد ، وتدل من جهة ثانية ، على أن عبادته وتقديسه لمثل هذا المخلوق كانت نتيجة تقليد وعادة أكثر منها استجابة لنداء العقل ، والقلب الصافى الذى لم يشغل بعد بالخرافات وسوء المعتقدات :

وفى معارضة الرسول عليه السلام ، يقص القرآن الكريم أيضا : « ألر . تلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ . أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا : أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىَ رَجُلٍ مِنْهُمْ ؟ : أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدم صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، قَالَ الْكَافِرُونَ : إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مبِينٌ »[1] .. ولكن فى عرض القرآن لهذه المعارضة هنا يسلك أسلوبا آخر ، سواء

فى جانب المعارضة أو فى جانب رفضها من قبل الله . فهو ينكر عليهم تعجبهم وبالتالى استنكارهم لأن يكون الرسول بشرا من أحاد الناس «ألر . تلك آيات الكتاب الحكيم ، أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم ؟ » . فتصف الآية القرآن : بأنه حكيم ، لايستطيع أن يأتى به بشر من عند نفسه ، ثم ترتب بعد ذلك : عرض منطق المعارضين ؛ وهو : أنه طالما جاء به رجل منهم فليس منزلا من عند الله ؛ رغم حكمته وإتقانه اتقانا كاملا يصعب على الإنسان تأليفه . فهو إذن : منطق الغرض ، والحقد ، والشهوة ، وليس منطق العقل والواقع .

كما انه يعبر عن معارضتهم للدعوة بسبب ماتطالب من وحدة فى الألوهية بقوله : « قال الكافرون : أن هذا لساحر مبين » .أى مهارة واضحة فى التلبيس والخداع . كأن عبادة الشرك هى الأصل فى الوجود وفى منطق الإنسان ،والحيدة عنها خداع وتلبيس ، وسحر وكذب هم وفى توضيح هذا المعنى تقول آيات أخرى

---

(١) يونس ١ ـ ٣ .

« وإذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَات قَالُوا : مَاهَذَا إلا رَجُلٌ يُرِيدَ أَنْ يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آباؤُكُمْ ، وَقَالُوا : مَاهَذَا إلاّ إفْكٌ مُفْتَرى ، وَقَالَ الّذِينَ (١) كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمّا جَاءَهُمْ : إنْ هَذَا إلاّ سِحْرٌ مُبِينٌ »(٢) .

وبجانب معارضة الكافرين لدعوة الرسول عليه السلام فى وحدة الألوهية كانت معارضتهم أيضاً لها فى جانب البعث أو النشور . وهى معارضة منتظرة من هذا الجانب ، بعد معارضتهم لوحدة الألوهية . إذ الأصل فى الإنكار للجانبين واحد ، وهو سيطرة الاتجاه المادى على التفكير والسلوك وجوانب حياة الإنسان الأخرى .

فالاتجاه المادى يفرض حتما : « وثنية » و « شركا » فى التقديس والعبادة، كما يفرض حتما كذلك : معارضة استبدال الحياة المادية الحاضرة بحياة أخرى ليست على غرارها يعيش فيها الإنسان . فصاحب الاتجاه المادى يفتش عن نفع مادى يحصل عليه ، أو عن اتقاء ضرر مادى يتوقع أن يصل إليه . وفى كلا الجانبين يميل ذات اليمين مرة وذات اليسار مرة أخرى ليجد « الوسيط » الذى يقدم له النفع أو يدفع عنه الضرر . وإن وجد وسيطا اليوم فقد لا يصلح هو نفسه أن يكون وسيط الغد ، أو ربما إن صلح فى أمر وفى ظرف معين قد يحتاج الوضع إلى وسيط ثان فثالث فرابع ... وهلم جرا فى أمر أو فى أمور أخرى لها ظروفها الخاصة . وهنا يتعدد : « الوسيط » وتختلف قرابين التقديس والاحترام والعبادة .. وهنا يكون الشرك ، وهنا تكون الوثنية . ثم الذى يتمسك بالاتجاه المادى لايرى أفضل

---

(١) والتعبير عنهم هنا بوصفهم كافرين ، بدلا من اعادة ضمير الغائب عليهم : وقالوا .. ليعبر بأن حكمهم على دعوة الرسول عليه السلام الى وحدة الألوهية ، بالسحر والتلبيس لا يصدر الا عن صاحب هوى مغرض . فكفرهم ، وليس منطق العقل ، هو الذى يدفعهم الى قول ما قالوه .

(٢) سبأ : ٤٣ .

منه . وهو من أجل ذلك لا يقتنع باتجاه آخر بديل عنه . ومن هنا كان تمسكه بالدنيا والمتع المادية فيها ، وإنكاره للبعث بعد الموت للحياة فى وجود آخر وفى عالم مختلف متعه ونوع الحياة فيه اختلافا كليا عن الدنيا ومالها من زينة ومتاع وإغراء .

ومن الآيات القرآنية التى تحكى معارضة الكافرين أو المعارضين لدعوة الرسول عليه السلام فى جانب البعث قوله تعالى :

« وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا : هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُل يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّق (إذا متم وكنتم ترابا) : إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيد (أى عن طريق البعث) ؟ . أَفْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِبًا ، أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بل الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ فِى الْعَذَابِ وَالضَّلاَلِ الْبَعِيدِ » (١) ، وقوله : « فَاسْتَفْتِهِمْ : أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا ؟ أَمْ مَنْ خَلَقْنَا ؟ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لاَزِب (أى قابل للالتصاق) ، بَلْ عَجِبْتَ ، وَيَسْخَرُونَ . وَإِذَا ذُكِّرُوا لاَيَذْكُرُونَ . وإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ وَقَالُوا : إِن هذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُبِينٌ . أَئِذَا مِتْنَا ، وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ ؟ قُلْ : نَعَمْ ، وَأَنتُمْ دَاخِرُونَ (أى ذليلون صاغرون) »(٢)

فعبرت هذه الآيات فى جملتها عن إنكار الكافرين والمتحدين لرسالته عليه السلام : للبعث . ونقلت عنهم وصفهم للدعوة إلى الإيمان بالبعث ، بأنها : سحر مبين ، ووصفهم كذلك لمن يدعو للإيمان به ، بأنه : إما أنه يفترى على الله الكذب أو يكون قد أصابه جنون . وذلك من عمق ما ألفوه وتوارثوه جيلا بعد جيل ، من من تقدير المادة وحدها ، ذلك التقدير الذى جعلهم يسخرون كذلك من عقيدة

---

(١) سبأ : ٧ ، ٨ .
(٢) الصافات : ١١ ـ ١٨ .

« البعث » للإنسان بعد موته إلى حياة أخرى ، ويصفونها كما يصفون الداعى إليها بما تنقله هذه الآيات وأخرى غيرها . فهم لم يستعظموا فحسب — ومن أجل ذلك ينكرون — أن الجسم إذا مزق كل ممزق وأصبح رابا وعظاما : أن يعود إلى حالته السابقة ، ورغم مضى آلاف السنين عليه . بل الفهم كذلك للاتجاه المادى فى الحياة يحتم عليهم أن ينكروه [1] لأن الذين يكفرون بالرسل السابقين ، وكذلك الذين واجهوا رسول الله عليه السلام بالتحدى والمعارضة هنا ، هم : من سادة المجتمع والمترفين فيه ، ومن الذين يتمتعون بما فى هذه الحياة المادية من متع ، من : نساء ، وأموال ، وأرقاء : وسكر وعبث ... وإن كان رد القرآن هنا فى المجموعة الثانية من الآيات : « فاستفتهم ؟ أهم أشد خلقا ، أم من خلقنا ؟ إنا خلقناهم من طين لازب » ... يتجه به إلى استعظامهم إعادة الإنسان بعد موته وتناثر ذرات جسمه فى الهواء . فالآية هنا تعنى : أن إعادة الإنسان إلى الوجود يقل كثيراً فى الصعوبة والتعقيد عن خلق ما عدا الإنسان ، وهى الكواكب وما سواها فى هذا الوجود . وقد خلق الله هذه الموجودات الأشد صعوبة وتعقيدا ، أفلا يستطيع خلق الإنسان من جديد ، وهو من طين لازب يميل بطبعه إلى الالتحام والتماسك ؟ .

وقد عرض القرآن من أسباب التحدى أيضا لكتاب الله أنه لم ينزل جملة واحدة ، بل نزل منجما وفى أوقات متتالية : « وقال الرسول :

---

(١) ويشير الى هذا السبب الثانى ما جاء فى القرآن الكريم ، حكاية عن المعارضين لدعوة « هود » من قومه ازاء « البعث » :

« وقال الملأ الذين كفروا وكذبوا بلقاء الآخرة ، وأترفناهم فى الحياة « الدنيا : ما هذا الا بشر مثلكم ، يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب « مما تشربون . ولئن أطعتم بشرا مثلكم انكم اذا لخاسرون . أيعدكم « أنكم اذا متم وكنتم ترابا وعظاما : انكم مخرجون ! . هيهات ، هيهات « لما توعدون . ان هو الا رجل افترى على الله كذبا ، وما نحن له بمؤمنين » (سورة المؤمنون : ٣٣ ـ ٣٨) .

فكفرهم بالبعث جاء نتيجة لترفهم فى الحياة الدنيا وتمتعهم بما فيها من نعيم مادى . والذين كانوا يقاومون الرسول هم سادة المجتمع وأصحاب الترف فيه .

«يارَبِّ ! إنَّ قَوْمِى اتَّخذوا هَذا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا . وَكَذَلِك جَعَلْنَا لِكُل نَبىٍّ عَدُوا مِنَ الْمُجْرمينَ، وكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا .وقَال الَّذِينَ كَفَرُا: لَوْلاَ أُنْزِّل عَلَيْهِ الْقُرآنُ جُمْلَةً واحِدَةً ؟ كَذَلكَ لِنُثَبِت بِهِ فؤادَك ، ورَتلْنَاهُ تَرْتِيلاً. وَلاَ يَأْتُونَكَ بمثل إلاَّ جِئناكَ بالْحَقِّ وَأَحسَن تفْسِيرًا »(1)

وكأن نزول القرآن مفرقا ، وليس دفعة واحدة ، أمر يدل على اليسر ، يستطيع أن يأتى به الإنسان بصنعته . وبالتالى لا يدل لزاما على أنه من عند الله . وهذا سبب تبدو قيمته فيما يشرحه القرآن هنا بقوله : « كذلك (أى على النحو المفرق الذى نزل عليه القرآن) لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا (أى أتينا به على مهل) . . » فقد قصد بالوضع المبين من نزول القرآن : تثبيت الرسول وإبعاد القلق عنه من معارضة الكافرين ، وتحديهم ومؤامراتهم . لأن نزول الوحى تباعا وعلى فترات فيه دلالة على استمرار رضاء الله وتأييده لرسوله عليه السلام ، فيعلم الرسول بذلك أن طريق دعوته مأمون العاقبة ، وأن نجاحه فيها أمر سيبلغه بإذن الله ، كما يعلم أن السبيل التى يسلكها مستقيمة لا اعوجاج فيها . وهذا من شأنه أن يزيد فى طمأنينته .

وهنا : أسباب تحدى الرسول وتحدى رسالته لا تخرج فيما يتعلق بشخصه عن : أنه ليس من العظماء ، وليس من الآحاد الذين أيدوا بملك ، أو كنز من المال ، أو بجنة من جنات الأرض يعيش عليها .

كما لا تخرج فيما يتعلق بالقرآن عن : أنه يرفض ما كانوا عليه ، وما كان عليه الآباء من قبل . من : عقيدة فى الحياة ، وهى : الشرك والوثنية من جانب وعدم البعث فى حياة أخرى من جانب ثان ، كما أنه نزل تباعا ومفرقا ولم ينزل دفعة واحدة ، الأمر الذى يدل على السهولة فى الإتيان به . وهى أسباب تصور

(1) الفرقان : ٣٠ ـ ٣٣ .

آثار الاتجاه المادى فى الحياة على الإنسان فى توجيهه . وتحدى الرسول وتحدى رسالته يرجع إذن إلى التقابل بين الاتجاه الإنسانى الحضارى كما تمثله دعوة الرسول لمجتمع جديد ، والاتجاه الآخر المادى كما تصوره تزعات الكفار والمتحدين . وهى أسباب كانت فيما قبل الرسول عليه السلام ، وعلى عهده ، وستظل باقية اليوم ، وغداً .. إلى يوم الدين . وأن أية دعوة إلى قيم إنسانية فى مجتمع البشرية ستلاقى حتما تحديا من أصحاب الاتجاه المادى . وعلى قدر تمسك هؤلاء باتجاههم المادى تكون قوة تحديهم أو ضعفه لدعوة الإنسانية . ولأنها أسباب وجودية ، أى ترتبط بطبيعة الوجود نفسه وما قام عليه من تقابل ، فإنه يجب على أى داعية لرسالة إنسانية : ألا يخشى المعارضة والتحدى من أصحاب الاتجاه المادى ، بل يجب عليه : أن ينتظر تحدى دعوته . وبقدر ما يكون عليه إيمانه بدعوته الإنسانية ، تكون مقاومته للتحدى المنتظر ، ويكون نجاحه فى خطوات الدعوة . ولهذا يوضح القرآن الكريم للرسول عليه السلام . أن تحديه ومعارضة دعوته لم يكن أمراً فريداً أو خاصاً به ، بل ذلك هو الشأن مع الرسل السابقين . وبقدر صبرهم والتزامهم فى السلوك حدود دعوتهم ، بقدر نجاحهم فى رسالتهم وتحويل المجتمع البشرى من مادى ينظر إلى كل شىء ويقيس كل أمر بما هو مادى فحسب ... إلى مجتمع إنسانى يدخل القيم الإنسانية فى التقييم ويجعلها ذات أفضلية فى الحكم والترجيح . يقول تعالى :

« إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ (أى بالقرآن) لَمَّا جَاءَهُمْ ، وإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ولَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ . مَا يُقَالُ لَكَ إِلَّا مَا قَدْ قِيلَ لِلرُّسُلِ مِنْ قَبْلِكَ ، إِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ وذُو عِقَابٍ أَلِيمٍ . ولَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيا ، لَقَالُوا : لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُه ؟ أَأَعْجَمِيٌّ وعَرَبِيٌّ ؟ قُلْ : هُو لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وشِفَاءٌ ، والَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فى آذَانِهِمْ وقْرٌ (أى صمم) وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى ، أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ »[1] .

فطالما كان: مصدر المعارضة والتحدى واحداً — وهو غلبة الاتجاه المادى وسيطرته على المعارضين والمتحدين — فظاهر التحدى واحدة ، لا تختلف بالنسبة لرسول عنه لرسول آخر . فرسالة الرسل جميعاً واحدة ، وهى بدورها رسالة إنسانية ، تقدر القيم الإنسانية حق قدرها ، ولا تغمط مع ذلك القيم المادية . وفقط لا تجعلها ذات سيادة فى التوجيه والسلوك الإنسانى .

« مَا يُقَالُ لَكَ إِلاَّ مَاقَدْ قِيلَ للرُّسلِ مِنْ قَبْلِكَ »

والتحدى أمر ضرورى فى صورة أو فى أخرى . والتعلل له بسبب أو بآخر أمر لامفر منه . فالقرآن وقد نزل بالعربية لسان القوم الذين جاء إليهم رسول الله عليه السلام ، يعترض عليه المتحدون للرسالة من العرب . ولو نزل بغير العربية لأثاروا هم أنفسهم تحديا جديداً له ، وقالوا : لماذا لم ينزل بالعربية ؟ ، إنه قد يكون موضع نظر للتصديق منا ولو كان ما جاء به واضحاً لنا ومفهوما لدينا ! . ولكن أيتفق أن يكون بلغة العجم لقوم عرب ؟ . وعلى هذا النحو يتحدونه

« وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا : لَوْلاَ فُصِّلَتْ آيَاتُه ! أأعجمِىٌّ وَعَرَبِىٌّ ؟ » (١) .

إن الأساس فى التحدى والمعارضة للقرآن ولرسالة السماء عامة فى أى وقت نزلت فيه موضوعى ، وهو لا يتغير إطلاقاً . فالقرآن — وكذلك كتاب الله من قبل — هو هداية للذين يؤمنون به وشفاء لما فى صدورهم من أحقاد ولما فى مجتمعهم من أمراض ، بينما هو للمتحدين والمعارضين له ... لمطالبته إياهم بالكف عن العبث والفساد فى الاستمتاع بمتع الحياة الدنيا وبتحقيق المساواة فى الاعتبار البشرى بينهم وبين من يسخرونهم لعبثهم وفسادهم ومن أذلوهم أو استرقوهم لمتعهم الشخصية يسد عليهم منافذ الحياة غير الكريمة وغير الإنسانية . فهو عمى وظلام لهم، ومن أجل ذلك ينصرفون كلية عن سماع ندائه كأنهم صم : «قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر ، وهو عليهم عمى » . وبوضع القرآن

---

(١) فصلت : ٤١ ـ ٤٤ .

الـكريم التحدى لرسالة الله : هذا لوضع الموضوعى والضرورى فى وقوعه، لايدق أمام الذين تدفعهم طبائعهم إلى التصدى للدعوة إلى القيم الإنسانية — ممثلة فى رسالة الله ، الإسلام — إلا أن يصبروا ، مهما طال أمد التحدى، ومهما اشتدت قوته، ومهما تحكمت المادية المفسدة المخربة فى الصد عن سبيل الله ، ومهما علا صوت المنافقين ، ممالئة لقوى الشر والفساد من أصحاب الاتجاه المادى . ولزيادة توضيح هذا التحدى الموضوعى لرسالة الله ، وتأكيد وقوعه قبل الرسول عليه السلام على نحو ما وقع على عهده — وبالتالى تأكيد وقوعه فى أى عصر بعد عصر الرسول، طالما كان الإنسان موجوداً على هذه الأرض وتتنازعه القيم الإنسانية من جانب والإغراءات المادية من جانب آخر — تذكر آيات أخرى من القرآن الـكريم ما دفع من تحد لرسل سابقين ، وما قيل من اعتراضات وجهت إليهم ، سواء لأشخاصهم أو إلى موضوع رسالاتهم . وما قيل من اعتراضات عليهم هو نفسه ما قيل للرسول عليه السلام فى مواجهة شخصه ودعوته .

وما يتعلق بأشخاصهم هو :

١ — إنهم من البشر ، وليسوا ملائـكة ،

٢ — وأنهم من عامة الناس يأكلون كما يأكل الآخرون ، ويشربون كما يشرب الآخرون ، ولم يؤيدوا بسند من الملك يأتى معهم ، ولا بأى لون من ألوان الزينة والترف المادى بل تبدو على بعضهم المهانة ، وبعضهم الآخر لا يكاد يبين ،

٣ — وأن أتباعهم الذين يؤمنون بهم ، هم : من أراذل الناس وسفلتهم . أى ليسوا من المحترمين فى قومهم ،

أما ما يتعلق بموضوع الرسالة فهى :

(أ) أنها تلغى الشرك والوثنية ، وتدعو إلى وحدة الألوهية .

(ب) وأنها تؤمن بالبعث وبحياة أخرى بعد هذه الحياة المادية، وهى حياة الدنيا.

تقول بعض هذه الآيات : « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ أَنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِى الْأَسْوَاقِ ، وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ

لِبَعْضٍ فِتْنَةً ، أَتَصْبِرُونَ ؟ وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا . وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا : لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ ؟ أَوْ نَرَى رَبَّنَا ؟ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ ، وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا » (١) « وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ ، فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ . وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَدًا لَا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ »(٢).

فتشير هذه الآيات بوجه عام ، دون تحديد رسول أو عهد ما ، إلى ما كان يعترض به المتحدون لرسالة الإلهية على شخص الرسول . وما كان يعترض به هنا يكاد يكون قاصرا على بشرية الرسول . ومن أجل ذلك كانوا يريدون ملكا ، أو أن يروا الله نفسه ، كي يصدقوا بالرسالة . ورد القرآن عليهم فيما كانوا يريدونه: أنهم بالغوا في تعظيم أنفسهم وفي طغيانهم ، فتصوروا ما لا يمكن لإنسان هادىء رزين : أن يتصوره ويطالب به من إرسال الملك أو رؤية الله جهرة . ثم رد أيضاً بصورة قاطعة على : أن الرسل لم يكونوا إلا بشراً ولم يكونوا أجساداً لا يأكلون الطعام ، كما لا يكونوا خالدين ، لا يطرأ الموت على حياتهم كما يطرأ على بقية البشر وتقول آيات أخرى تقص نبأ نوح مع قومه :

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ ، فَقَالَ : يَا قَوْمِ : اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ! أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ . فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ ، يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً ، مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ ! إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ ، فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّى حِينٍ ! . قَالَ : رَبِّ ! انْصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ ! » (١) .

---

(١) الفرقان : ٢٠ ، ٢١ .
(٢) الأنبياء : ٧ ، ٨ .

« كَذَّبَتْ قَومُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ . إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ : أَلا تَتَّقُونَ ؟ . إِنِّى لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . فَاتَّقُوا اللَّهَ وأَطِيعُونِ ، وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجرٍ إِنْ أَجرى إِلاَّ على ربِّ الْعَالَمِينَ ، فاتَّقُوا اللهَ وَأَطِيعُونِ . قَالُوا : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُون؟ قَالَ : وَمَا عِلْمِى بِمَا كانُوا يَعْمَلُونَ . إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّى لَوْ تَشْعُرُونَ . وَمَا أَنَا بِطَارِدِ الْمُؤْمِنِينَ . إِنْ أَنَا إِلاّ نَذِيرٌ مُبِينٌ » (٢) ... فاستنكر قوم نوح بشريته كما استنكروا دعوته إلى وحدة الألوهية ، ورموه من أجل دعوته هذه : بالجنون مرة ، وبرغبته فى التزعم عليهم دون أن يكون له مايميزه بينهم من أجل هذه الزعامة مرة أخرى . ورأوا : أن فى اتباع الطبقة الدنيا له فى المجتمع مايعوقهم هم أنفسهم عن اتباعه : « قالوا : أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ » ؟ .

وآيات أخرى تقص أنباء رسل آخرين بعد نوح ، مثل قوله : ثُم أَنشأنا من بعدهم قرناً آخرين (مجتمعات أخرى) . فَأَرسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ (هود ــ صالح ــ شعيب) : أَنِ اعْبُدُوا اللهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلٰه غَيْره ، أَفَلا تَتَّقُونَ ؟ . وَقَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بلقاءِ الآخرَةِ ، وَأَتْرَفْنَاهُمْ فِى الْحَيَاةِ الْدُّنْيَا : مَا هَذَا إِلاّ بَشَرٌ مِثْلُكُمْ : يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ ، وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ . وَلَئِن أَطَعْتُم بَشَراً مِثْلَكُم إِنَكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ . أَيَعِدُكُمْ أَنَكُمْ إِذَا مِتُّم وَكُنتُم تُرابًا وعِظَامًا أَنكُم مُخْرَجُونَ (مبعوثون من جديد أحياء) : هَيْهَاتَ ، هَيْهَاتَ لِما تُوعَدُونَ ! إِنْ هِيَ إِلاّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ ونَحْيَا

---

(١) المؤمنون : ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ .
(٢) الاسراء : ٧٣ ـ ٧٧ .

oleikandil.com

وما نحنُ بمَعْوثين ، إنْ هُو الاّ رَجُل افْتَرىَ عَلَى الله كَذِبا ، ومَانحن لَه بمؤمنِينَ . قالُ : رب ! انصُرْنِى بِمَا كَذّبُونِ ! . قَالَ : عمّا قليل لَيُصْبِحُنّ نادِمينَ . فَأَخَذَتْهم الصّيْحَة (الزلزال) بالْحَقّ ، فجَعَلناهم غثاء ، فبُعْداً لِلْقَوْم الظّالِمينَ . ثُمّ أَنْشَانا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرُونا آخَرين . ما تَسْبقُ مِنْ أمّةٍ أَجَلهَا ومَا يَسْتَأخِرُونَ. ثم أَرسَلْنا رُسُلَنا تَتْرَى (تتوالى) كُلّمَا جاءَ أَمّة رَسُولُهَا كَذّبُوه ، فَاتْبَعْنا بَعْضَهُمْ بَعْضاً ، وَجَعَلْنَاهم احَادِيث (أى عبرا تروى فى التاريخ) فَبُعْداً لقَوْم لاَ يُؤْمِنُون[1] » . .

وهذه الايات كما تنكر بشرية الرسول فيما يتعلق بشخصه : « ماهذا إلا بشر مثلكم » .. تنكر فى موضوع الرسالة : وحدة الألوهية، وعقيدة البعث فى الدار الآخرة . والذين أنكروا ذلك هم : أصحاب الترف فى الحياة الدنيا : « وأترفناهم فى الحياة الدنيا » ممن فى صالحهم بقاء وضع المجتمع على ما هو عليه من قرون : مادية فى المظاهر وفى المعيشة، وقرون أخرى : فى الاعتبارات الإنسانية لحساب مجموعة على حساب أخرى . وتزيد هذه الآيات أنها نصت على « القانون العام » فى التصادم بين الدعوة للقيم الإنسانية، والمادية فى الاتجاه والسلوك وهو ما جاء فى قول الله تعالى : « كلما جاء أمة رسولها كذبوه » : فى صورة الحكاية القاطعة . وهذا القانون يقضى أيضاً : بأن ما وقع فى الماضى بين القيم الإنسانيه من جانب ، والاتجاه المادى من جانب آخر .. يقع مستقبلا . لأنه تضاد طبيعى يتعلق بطبيعة الأشياء نفسها .

ومجموعة أخرى من الآيات تقص نبا موسى مع أمته : « ثُم أَرْسَلْنا موسى وآخاهُ هَارُونَ بِآياتِنا وَسُلْطَان مُبين . إِلَى فرْعَوْنَ وملئه فاسْتكبَروا ،

---

(١) المؤمنون : ٣١ ـ ٤٤ .

وكانوا قَوْماً عالين . فقَالُوا : أَنُؤْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا . وَقَوْمُهُمَا لَنا عَابِدون ؟ فكَذَّبوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ »(١) .

« وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَونَ وَمَلئه فَقَالَ : إِنِّى رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِآيَاتنا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَضْحَكُونَ . ما نُرِيهِمْ مِنْ آيَة إِلاَّ هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ، وَأَخَذْنَاهُمْ بالعَذَابِ لَعَلَّهُمْ يرْجعُونَ . وَقَالُوا : يا أَيُّهَا السَّاحِرِ ! : ادْعُ لَنَا رَبَّك بما عَهِدَ عِنْدَكَ ، إِنَّنَا لَمُهْتَدُون . فَلَمَا كَشَفْنَا عَنْهُم الْعَذَاب إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ . وَنَادَى فِرْعَوْنُ فى قَوْمِه ، قَالَ : يَا قَوْم ! أَلَيْس لِى مُلْكُ مِصر ، وَهَذِهِ الأنهار تَجْرِى مِنْ تَحْتِي ، أفلاَ تُبْصِرُون ؟ . أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِى هو مَهِينٌ ولاَ يَكادُ يُبِينُ ! . فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ ، أَوْجَاءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَة مُقْتَرِنِينَ ! فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوه ، إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ . فَلَما آسفُونَا انْتَقَمْنَا مِنهُم فَأَغْرَقْنَاهم أَجْمَعِينَ . فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلاً للآخِرِينَ » (٢) .

فما يقصه القرآن هنا عن موسى عليه السلام مع فرعون مصر وملئه ، يذكر اعتراض الذين تحدوه ـ وهم فرعون وأتباعه ـ على شخص موسى بأنه بشر ، ومن عامة الناس غير المترفين ، لم يؤيد من قبل الله بما يميزه تميزاً مادياً : « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب ، أو جاء معه الملائكة مقترنين ! » .. أم أنا خير من هذا الذى هو مهين ولا يكاد يبين ؟ . ولا بد لفرعون ـ ومن على شاكلته من المترفين أصحاب الثراء ، والجاه ، والملك ـ أن يعارض الدعوة الإلهية التى لا تفرق

(١) المؤمنون : ٤٥ ـ ٤٨ .
(٢) الزخرف : ٤٦ ـ ٥٦ .

فى الاعتبار بين فرد وآخر ، إلا فى مجال الإنسانية وقيمها ، وليس فيما وراءها من : زينة ومتع مادية ورياسة وملك .

... وهكذا : كل من استحوذ على الدنيا وترفها ومتعها وثرائها يعارض حتما فى أن يشاركه غيره فيها ، كما يعارض فى أن تكون قيمتها أدنى مما يقيمها به ، أو أن تكون قيمته هو مساوية لقيمة الآخرين : الذين حرموا منها ، والذين هم فى خدمته وسخرته من عبيد وأحرار . ومن الطبيعى – بل من الضرورى – أن اتجاها آخر فى الحياة يضع الجوانب المادية وضعا ثانوياً بعد الجانب الإنسانى ، ويميز بين الناس بالمستوى المهذب فى الإنسانية وأبعاده ، ويدعوهم جميعاً للترابط على أساس المساواة فى القيمة الإنسانية ... يلقى من أصحاب الاتجاه السابق ألوانا مختلفة من العنت والاضطهاد ، ويجد أصراراً فى المعارضة ، وسيلا من التآمر عليه وعلى الموالين له فى صور غير أخلاقية وغير إنسانية . وهذا التصادم بين الاتجاهين يشبه التباين بينهما فى الهدف والنتيجة : فكما لا تقارب بين هدفيهما ، كذلك لا تلاؤم ولا انسجام بين أتباعهما . سواء فيما كان ، أو فيما يكون . فالاتجاه المادى فى المجتمعات التى أرسلت إليها رسل بكتاب الله كان هو سبب التحدى والإلحاد والكفر بذلك الكتاب وبما جاء فيه . وإذا سيطر هذا الاتجاه من جديد فى عصر ما ، كما يسيطر الآن فى اتجاه الماركسى الاشتراكى ، فإنه حتما يكون سبب التحدى والإلحاد والكفر بدين الله ، مهما حاول أتباعه من تغطيته وستره .

اشتراكية ماركسية تساوى الكفر بالإسلام ، الذى هو دين الله دائما . وماقد يبذل فى بادئ أمر التطبيق لهذا الاتجاه المادى من محاولات الملاءمة بين كتاب الله وكتاب كارل ماركس ، أو من الاهتمام فى الحديث بما يسمى بالقيم الروحية فى ثنايا البيانات والمواثيق الاشتراكية . . لا يقصد منه إلا كسب الوقت للتمكن من تركيز دعائم الإلحاد بالتدريج وتثبيت الحكم البوليسى والرقابة الحزبية السياسية ثم لا نسمع كلمة بعد ذلك عن دين ، إلا بما يمتهن به ، ويقبح من شأنه . وسوف تلعب « الرجعية » و « التقدمية » الدور الرئيسى فى التنفير من الدين ، والترغيب فى الإلحاد .

وإذا كشف القرآن الآن عن أسباب الكفر والتحدى لرسالة الرسول عليه السلام ، فإن موقف الرسول ـ وموقف الداعى إلى دين الله بعده ـ يكون موقف الذى يعلم جيداً ومقدماً ، نوع العدو الذى يواجهه ، ونوع العداوة والعقبات التى تكون فى سبيله . وفى ذلك - ما يبعد القلق واليأس عن نفس الإنسان الذى يختاره الله لرسالته، أو يحتم عليه القدر أن يكون من الداعين لها، بعد خاتم الأنبياء والمرسلين

***

ومثانى هذه العناصر ، الثقة بنجاح الرسالة ، إذ أن شأن الطبيعة البشرية أن تتأرجح فى اتجاهها تحت تأثير العوامل المختلفة والمتقابلة ، وبالأحص عندما تواجه قيما جديدة تؤمن بها وتفترق عن تلك القيم الأخرى التى كانت سائدة فى المجتمع إذ ذاك . فهنا ، تكون البيئة القائمة بما لها من جو يجذب إليه نحو اتجاه معين ، وهنا كذلك . عالم القيم الجديدة الذى يشد إليه المتطلعين إلى تحقيق هذه القيم وتغيير الوضع الذى كان للمجتمع القائم نحو اتجاه آخر مقابل . والرسول عليه السلام كان بشراً وكانت له خصائص الطبيعة البشرية ، وكان يمكن أن تراود نفسه هواجس فيها حنين الماضى ، رغم أنه على وعى تام برسالته ، وهى دعوة تختلف فى جوانب كثيرة منها عن هذا الماضى . نقرأ قوله تعالى :

« وَلَوْلاَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُه لَهَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنهُمْ أَنْ يُضِلُّوكَ ، وَمَا يُضِلُّونَ إِلاَّ أَنْفُسَهُمْ ، وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ ، وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ، والْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُن تَعْلَمْ ، وَكَانَ فَضْلُ اللهِ عَلَيْكَ عظِيمًا(١) » .

فعدم تأثر الرسول واستجابته لعوامل الماضى كان لأمر عارض لطبيعته البشرية وهو فضل الله عليه وما حباه به من ، وحى ، وحكمة ، وعلم لم يكن له من قبل . وتشرح هذا الأمر آيات أخرى وردت فى سورة الإسراء :

---

(١) النساء : ١١٣ .

« وَإِنْ كادُوا لَيَفْتِنونَكَ عنِ الَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ، لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ ؛ وَإِذًا لاَتَّخَذُوكَ خَلِيلاً. وَلَوْلاَ أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً . إِذًا لأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ، ثُمَّ لاتجدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيراً . وإِنْ كادُوا لَيَسْتَفِزونَكَ (يقلقونك) مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنهَا ، وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً . سُنَةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلاَ تَجِدُ لِسُنَتِنَا تَحْوِيلاً » (١)

فهذه الآيات تفيد محاولة التأثير من جانب المعارضين والكافرين عن طريق الإغراء بتقاليد الماضى فى المجتمع « وإن كادوا ليفتنونك عن الذى أوحينا إليك لتفترى علينا غيره » .. كما تفيد الميل إلى الاستجابة من جانب الرسول عليه السلام « ولولا أن ثبتناك ، لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا » مما يدل على : أن الطبيعة البشرية فى ذاتها يمكن أن تتأرجح فى الاتجاه تحت تأثير العوامل المختلفة ، ما لم يكن لها عاصم من : هداية ، وحكمة فى الموازنة ، وعلم ببصائر الأمور . ولذا أكملت هذه الآيات بعد الكشف عن المحاولة للإغراء والميل إلى الاستجابة له ، فذكرت : أن ذلك لم يكن شأن الرسول وحده ، بل كان شأن الرسل جميعاً ، لأنه قانون عام وسنة إنسانية لازمة ، سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنتنا تحويلا . ولكى يستمر عاصم الطبيعة البشرية دون أن تنجذب إلى الماضى وماله من تقاليد وعادات موروثة فيه ولها تأثيرها اللاشعورى على الإنسان ، كان لابد من توفر ما أشار إليه القرآن فى قوله

« وَأَنْزَلَ اللهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ ، والْحِكْمَةَ ، وَعَلَّمَكَ مَالَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ » (٢) .

مخاطباً رسول الله الكريم ، وموضحاً له العوامل التى تقيه من التأرجح . فضلا عن الجنوح .

---

(١) الشعراء : ١٠٥ ـ ١١٥ .
(٢) النساء ١١٣ .

فهرس الكتاب

صفحة

تمهيد ٣

الفصل الأول : مظاهر الوحدة ٧

الفصل الثانى : تحديات المجتمع الحضارى ٥١

كتب للمؤلف : التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

أولاً : تفسير السور المكية :

١ — سورة الأعراف . . . . . طبعة ثانية

٢ — » الجن . . . . . » ثالثة

٣ — » الصافات . . . . . » أولى

٤ — » الأنعام . . . . . » »

٥ — » النحل . . . . . » »

٦ — » يونس . . . . . » »

٧ — » هود . . . . . » »

٨ — » المؤمنون . . . . . » »

٩ — » الشعراء . . . . . » »

١٠ — » يوسف . . . . . » »

١١ — » إبراهيم . . . . . » »

١٢ — » الحجر . . . . . » »

١٣ — » الإسراء . . . . . » »

obeikandl.com

١٤ — سورة طه . . . . . طبعة أولى
١٥ — « الكهف . . . . . « «
١٦ — « مريم . . . . . « «
١٧ — « الانبياء . . . . . « «
١٨ — « الفرقان . . . . . « «

كتب للمؤلف

١ — الفكر الإسلامى الحديث ـ وصلته بالاستعمار الغربى الطبعة الثامنة
٢ — الفكر الإسلامى المعاصر ـ مشكلات الحكم والتوجيه « الثانية
٣ — الفكر الإسلامى المعاصر ـ مشكلات الأسرة والتكافل « الثالثة
٤ — الفكر الإسلامى فى تطوره . . . . « الثامنة
٥ — طبقية المجتمع الأوربى ـ وانعكاس آثارها على المجتمع الإسلامى المعاصر « الثامنة
٦ — الإسلام فى الواقع الأيديولوجى المعاصر . . « الثامنة
٧ — الإسلام فى حل مشاكل المجتمعات الإسلامية المعاصرة « الأولى
٨ — خمس رسائل إلى الشباب المسلم المعاصر . . . « الثانية
٩ — الإسلام ونظم الحكم المعاصرة . . . . « «
١٠ — نظام الإسلام بين هدى الإسلام وضرورة المجتمع المعاصر « الأولى
١١ — غيوم تحجب الإسلام . . . . . « «
١٢ — الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم . . « «
١٣ — الجانب الإلهى من التفكير الإسلامى . . . « الثامنة
١٤ — الإسلام فى حياة المسلم . . . . . « الثالثة

obeikandl.com

١٥ — رأى الدين بين السائل والمجيب : جزء ١ ، ٢ معاً
طبعة مزيدة ومنقحة . . . . . » الثالثة

١٦ — الدين والحضارة الإنسانية . . . . . » »

١٧ — نحو . . القرآن . . . . . » الأولى

١٨ — القرآن . . والمجتمع . . . . . » »

١٩ — من مفاهيم القرآن — فى العقيدة والسلوك . . » »

٢٠ — منهج القرآن — فى تطوير المجتمع . . . » »

٢١ — عالمية الثقافة فى القرن الثالث الهجرى : للسهروردى . » ١١

٢٢ — المجتمع الحضارى وتحدياته من توجيه القرآن الكريم » »

رقم الايداع بدار الكتب ٧٧/٢٤٥٧
الرقم الدولى ٣ ـ ٤٣ ـ ٧٢٣٦ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى ـ القاهرة)
تليفون : ٢٢٠٧٩

obeikandl.com